الطبعة الثانية

عتبات العبودية

جواب لسؤال المسلم: كيف أعبد الله؟



تأليف

د. عقيل بن سالم الشمري



عَتَبَاتُ العُبُودِيَّةِ

جَوَابٌ لِسُؤَالِ المُسْلِمِ: كَيْفَ أَعْبُدُ اللهَ؟

عتبات العبودية

جواب لسؤال المسلم: كيف أعبد الله؟



تأليف

د. عقيل بن سالم الشمري




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلقنا للعبودية، وشرف بها نبيه ﷺ، وبعد:

حينما بُعث النبي ﷺ كان أول من آمن به خديجة وأبو بكر وعلي وبلال وأبو ذرٍ رضي الله عنهم أجمعين، وحازوا لقب (السابقون)، ولم تُشرع حينئذٍ الشرائع، فلا صلاة، ولا صيام، ولا أوراد، ولم يُشرع النسك، حتى القرآن لم ينزل إلا أول سورة العلق، فكيف كانوا يتعبدون لله منذ يقظتهم إلى نومهم؟ وبماذا كانوا يعمرون أوقاتهم؟!.

إن الله خلقنا للعبودية، وهي الاسم الجامع لما يُحبه الله، وجعلها الله صبغةً ومن أحسن من الله صبغة، ولا تعتقد أن هذا كافٍ في اكتمال التصور الذهني عن العبودية، إذ لا زال السؤال حاضراً: ما معنى كون العبودية صبغة؟ وكيف تكون كذلك؟.

فإذا قلت: بأن العبودية هي الخضوع، فكيف يكون الخضوع؟ بطأطأة الرأس وانحناء الرقبة، أم هو بخفض الصوت والبصر؟!



والمتبادر للذهن بأن الخضوع والافتقار يحتاج إلى اعتزال وخلوة، فهل هـذا التصور صحيـح؟ وإن كان صحيحاً كيف أمـارس العبودية لله والخلـوة في محياي المليء بالأشـغال والأعمال؟!.

إن أشد أزمة يعيشـها المؤمن المعاصر ليست في معاشه ورزقه، إنما في فقهه لعبوديته، وكل أزمة غير تلك فهي دونها؛ إذ الحياة لم تخلق إلا للتعبد لله.

إن تكرارنا لكلمـة: نَعْبُد الله، ونحن عبـاد الله، لا يعني بالضرورة أننا أحسنا تصورها في قلوبنا تصوراً حسب المراد الشـرعي، وبالتالي لا بدَّ أن يتأثر سـلوكنا العبـادي نتيجة لاختلال التصور الذهني، فكل من لم يَتَصَوَّر مفهوم العبودية فلا يمكنه القيام بهـا، فكانت الحاجة ماسـةً في هذا الزمن لتوضيح مفهوم العبوديـة، وكيفية ممارسـته، وكيف يكون التعبُّد وصفاً وحالاً للمؤمن، ينام به ويسـتيقظ عليه؟ وكيف يسـتوي شـعورنا حال الذهاب للمسجد مع شـعورنا حين نجلس فـي بيوتنا وعلـى مكاتبنـا؟ كما كان يسـتوي عند الصحابة شـعورهم حين الذهاب للصلاة، وشـعورهم حين الذهاب لمزارعهم؟!.

إن من مظاهر الأزمة أننا لا نعرف على وجه الدقة أهم صفات العبد؛ لأننا لم ندرك زمن الأسياد والعبيد، لكننا نحسن تصور صفات الخادم والخادمة لإدراكنا لهم في حياتنا، فإذا قرأنا آيات العبادة، والأمر بالعبودية، ونداء الرحمن لنا بالعبيد لا نملك فهماً كاملاً عن دلائل هذا الوصف، وكيفية ممارسته، ولهذا كثيراً ما ينقدح في بعض الأذهان أن العبد كالخادمة في زماننا!!

فكان سؤال العصر بالنسبة للمؤمن: كيف أتعبَّد لله؟ وكانت الخطوة الأولى في الإجابة أن نُحسن التصور الذهني لمفهوم العبودية.

وقد منَّ الله عليَّ بالاطلاع على كتب الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فكان كثيراً ما يتعرض لقضية العبودية، وتصويرها، والتمثيل عليها، ووقع في ذهني مثال العبد والسيد التي كثيراً ما يذكرها ابن القيم لشرح أحوال القلوب، ثم اطلعت على كتاب (حقيقة العبودية) للشيخ مجدي الهلالي، فكان هذا الكتاب من فضل الله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.





بقي سؤال هامٌ

هناك ثلاثة أسئلة تتعلق بالعبودية، استطاع المؤمن ـ بالواقع المعاصر ـ أن يجيب عن اثنين منها، وبقي الثالث:

فالسؤال الأول: لماذا خلقنا الله؟

فجواب هذا السؤال منصوص عليه بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فلم يجد المؤمن حرجاً في ذلك.

والسؤال الثاني: ماهي العبادة؟

وقد وفَّق الله بأن سخر ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليلخص لنا الجواب من خلال فهمه الشرعي للنصوص، فقال: «هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة»[1].

والسؤال الثالث: كيف أتعبد لله؟

وهو السؤال الذي أصبح يفرض نفسه، خاصة إذا طُلب من المسلم أن يمارس العبودية خارج الصلاة والقرآن وبعض

---

(١) العبودية، ص ١٧.

الشـعائر، ثم زاد اللبـس حتـى أصبحت بعـض العبادات لا يتصور فيها العبودية الكاملة، فكيف يحقق المؤمن الخشوع في صيامه؟! أو الخضوع في صدقته؟! فضلاً أن يُطلب منه أن يمارس العبودية في أكله وشربه ويومه وليلته! فسأستعين الله في بيان شيءٍ من ذلك.





أسئلة إثرائية

السؤال الأول: حينما بُعث النبي ﷺ وأسلم معه أبو بكر وعلي وخديجة وورقة بن نوفل، ولم تُشرع حينئذٍ الشرائع - فبماذا كانوا يتعبدون لله منذ الصباح إلى نومهم؟

السؤال الثاني: لماذا كان أبو بكر أعبد الصحابة مع أن غيره أكثر منه في بعض العبادات؟ فعثمان رضي الله عنه أكثر قراءة للقرآن منه، وابن عوف أكثر منه نفقة، وأبو هريرة أكثر ذكراً لله، وغير ذلك.

وبصورة أخرى: لم كان يُكتب الأجر لأبي بكر رضي الله عنه أجر نومه وأكله وذهابه وسكوته ولا يحصل ذلك لبعض الصحابة؟!

وأيضاً: أليس غريباً حقاً أن اللحظة التي كان أبو بكر فيها نائماً هو أفضل من صحابي كان حينها قائمٌ يصلي؟! فما سر ذلك يا تُرى؟!

السؤال الثالث: أليس عجيباً أن صحابياً يترك مجلس النبي ﷺ ويذهب إلى بستانه يصلحه، وإلى سوقه يجلب



حاجته، ومع هذا لا يؤنبه ضميره كيف يترك أفضل البشر جالساً مع نفرٍ قليل؟ كيف يفوت على نفسه مجلساً كله نور؟

بل أليس عجيباً أن الصحابة لم يكونوا ملازمين للنبي ﷺ لا يفارقونه كظله وهو يأتيه الوحي من السماء؟! كيف طاوعتهم قلوبهم من غير تأنيب نفسي؟! لم كانوا غير متكلفين في عبادتهم؟

السؤال الرابع: لم كان أحدنا لا يبلغ مبلغ الصحابة ولو أنفقنا مثل جبل أحد ذهباً؟ ما السر الموجود في الصحابة؟

هل هو كثرة صلاة؟ كان بعض التابعين يقوم كل الليل، ويصوم كل الدهر!.

هل هو نصرة النبي ﷺ؟ الذين جاءوا بعدهم نصروا سنته!

هل هو جهادهم في سبيل الله؟ ما فُتحت الأمصار إلا بعدهم!

السؤال الخامس: جاء عن العجم حينما دخلوا في دين الله أفواجاً من صور العبادة والتفاني فيها، وكثرة القيام والذكر مالم يأتِ عن الصحابة الكرام، ومع هذا لا يدانونهم في الفضل، فما سر ذلك؟!

السؤال السادس: جاء رجل إلى النبي ﷺ وحلف ألا يفعل إلا الفرائض، فقال ﷺ: أفلح إن صدق، كيف كان لهذا الرجل أن يقتصر على ذلك في زمن النبوة؟! مع أن أذهاننا كانت تتصور أن القوم لا يفارقون المسجد أو الذكر والعلم وشرائع الدين؟

السؤال السابع: جاء في الصحيح أن بغياً سقت كلباً فغُفر لها، كيف استطاع عمل صالح هو إسقاء كلب أن يزيل كبيرة الزنا؟! مع أن المرأة يظهر منها الرحمة بالمخلوقات عامة!

السؤال الثامن: إذا مدح الله أحداً في كتابه العزيز سماه عبداً، فقال عن سليمان عليه السلام: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠]، وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾، وقال عن جملة منهم: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الصافات: ٨١]، ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الصافات: ١٢٢]، ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]، وقال عن لوط ونوح عليهما السلام: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ التحريم: ١٠]، وقال عن النبي محمد ﷺ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الإسراء: ١] وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ الكهف: ١].

فما سر هذا المدح بهذا الوصف؟ وما دلالة تكراره للأنبياء؟ ولم لم يمدحهم بالإيمان؟ فهل العبودية بهذا القدر من العلو والرفعة؟



أزمة في فهم العبودية

إن لدى المسلمين اليوم أزمة عامة في فهم العبودية، ويدل لذلك ما يلي:

١ ـ عدم وضوح مصطلح (العبودية) وضوحاً كاملاً، وللتأكيد قارن بين فهم الناس لكلمتي (العبودية) و(الصلاة)، تجد أن الصلاة واضحة التصور في الذهن المسلم، بينما يقل تصور معنى (التعبد لله)، وهذا بسبب وجود أزمة في فهم العبودية.

٢ ـ تكرار سؤال: ما هدفي في الحياة؟ وما دوري فيها؟ وما دوري في الأزمات؟

هذه الأسئلة ونحوها تدل على غياب فهم العبودية وإلا فإن الهدف والدور والغاية هو العبودية، لكن لضعف تصورها تجد أن الذهن يغفل عنها، وهذا بسبب وجود أزمة في فهم العبودية.

٣ ـ يتصور البعض أن العالم الشرعي ومعلم المواد الإسلامية وإمام المسجد ونحوهم يسهل عليهم أداء العبودية بحكم تخصصهم الشرعي، لكن يصعب أداء العبودية على

غيرهم كالطبيب وأصحاب التخصصات العلمية والهندسية وغيرها، إذ لا يتصور في أذهانهم أن هؤلاء يمكنهم أداء العبودية لبعدهم عن التخصصات الشرعية، حتى أن بعضهم ممن لديه لوم نفسٍ يقتطع من وقته دقائق ليُلقي كلمة شرعية يرضي بها تأنيب نفسه، وهذا بسبب وجود أزمة في فهم العبودية.

٤ ـ ومما زاد الأزمة أن الأجيال المتأخرة لا تعرف العبودية والحرية إلا لفظاً، فهي لم تمارسها في الحياة العملية، وما وصل إلينا من أخبار العبيد وسادتهم لا تعطينا صورة جميلة عن التصور! بل إن لفظ (العبد) غير مرحب به في الواقع المعاصر، فكيف نستطيع إدراك فهم لفظ العبودية لله والتعبد له.

٥ ـ لفظ (الذل) الذي هو أخص صفات العبد لا يتصور الذهن بذله لله، ولكي ندرك خطورة ذلك، أسأل نفسك: ما معنى أن تتذلل لله؟! ستجد أن ذهنك لا يتصور إلا معنى انخفاض الرقبة وخفض الصوت وبطء الحركة، وهذا طبعاً لا تقبله النفس، فيبقى لفظ الذل تنطقه ألسنتا ولا نتصور معنى ذلنا لله على وجه الحقيقة.



وهذا الغبش في مفهوم العبادة قد يحدث لآحاد الناس كما روى البخاري في صحيحه (٥٠٦٣) عن أَنَسِ بن مالِكٍ ﵁ قالَ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا، كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟

فهؤلاء الرهط لم يروا من النبي ﷺ خارج منزله رهبانية وانقطاعاً في العبادة، فأرادوا أن يعرفوا حاله داخل منزله إذ لعله على الحال التي يتصورونها في أذهانهم من الانقطاع للعبادة. فلما أُخبروا رأوا أنها قليلة، ثم لاموا أنفسهم على هذا الخاطر وحاولوا أن يجيبوا عن الصورة التي في أذهانهم من أن العبادة تعني الانقطاع لها والترهبن، فقالوا: إن النبي ﷺ قد غفر له وليس كحالنا، فنلاحظ أن صورة العبادة في أذهانهم لا زالت تعني كثرة الصلاة والصيام وغيرها، ولهذا قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا؛ فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، ومن خلال كلامهم هذا تتضح صورة العبادة في أذهانهم فقد كانت تعني الكثرة والانعزال، ثم صحح لهم النبي ﷺ المفهوم في آخر الحديث.

ثم في عهد التابعين يروي الإمام مسلم في صحيحه (٧٤٦) أن سعد بن هشام بن عامر الأنصاري أراد أن يغزو في سبيل الله، فقدم المدينة فأراد أن يبيع عقاراً له بها فيجعله في السلاح والكراع ويجاهد الروم حتى يموت، فلما قدم المدينة لقي أناساً من أهل المدينة فنهوه عن ذلك، وأخبروه أن رهطاً أرادوا ذلك في حياة نبي الله ﷺ فنهاهم نبي الله ﷺ وقال: أليس لكم فيَّ أسوةٌ، فلما حدثوه بذلك راجع امرأته وقد كان طلقها. وهذه الحادثة تدل على أن لبساً يشوب مفهوم العبادة أحياناً، فيحصل نتيجته اجتهادٌ خاطئ، وهو وإن كان قليلاً في عهد التابعين وأقل منه في عهد الصحابة إلا أنه في العصور اللاحقة لن يكون قليلاً بحكم البعد عن العهد النبوي الكريم، فلا نأمن من سوء تصورنا عن مفهوم العبادة الصحيح، فمن نحن بعد الصحابة والتابعين؟!

وأيضاً تحدثنا الشفا بنت عبد الله ـ وكان لها صحبة ـ فيما رواه الطبري[1] في تاريخه أنها رأتْ فتيانًا يقصُدون في المشي، ويتكلّمون رويدًا، فقالت: ما هذا؟ قالوا: نُسّاك، فقالت: كان والله عمر إذا تكلّم أسمع، وإذا مشى أسرع. وهذا يدل على أن

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢١٢.

أولئك الشـباب أرادوا أن يصنعوا العبادة صناعةً بجوارحهم! وهذا لا يكون إلا لأن أذهانهم لم تحسـن تصُورها، فحاولت جوارحهم صناعة صورة مشابهة لها. كما يدل على أن مفهوم العبادة عنـد الصحابة والصحابيـات كان واضحاً، فلم تربطه الشـفا بحركات ظاهرية، بل أتت بأفعـالٍ لعمر رضي الله عنه مخالفة لأفهام أولئك الشـباب، وهكذا يبدو أن مفهوم العبودية يزداد غبشاً كلما تأخر الزمن.

٦ ـ ومما زاد أزمة فهـم العبودية في الأزمنـة المتأخرة التباس معنـى (العبودية) بمعنـى (العبـادة) فأصبح المعنى الحقيقي للعبودية يخفت ضوؤه؛ لأنه شعور قلبي عميق جداً قد لا يكون واضحاً بصورة تامة بمعناه الشـرعي ـ لأسـباب عديدة يأتـي بيانها ضمنـاً ـ، وبالمقابل يعـوض الناس هذا النقص في مفهوم العبودية بالإكثـار من مظاهر العبادة إرضاءً للنفس في تحقيق العبـادة، فعادة النفس أنهـا إن كان أمامها أمران لا تستطيع التمييز بينهما فإنها تأخذ أحدهما ـ الأسهل غالباً ـ وتكثر منه رغبة فـي تعويض الناقص، فمن هنا أصبح الناس يتنافسـون في عدد ختمـات القرآن، وعـدد ركعات الصلاة، ويسبحون بأرقام كبيرة جداً، ولا أقصد ذم ذلك إنما

قصدت أن عدم تصور العبودية أدى إلى أن الأنفس عوضت نقصها في ذلك بالإكثار من مظاهر العبادة، وفرق بين العبودية ومظاهرها كالفرق بين الشيء وجوهره.

٧ ـ ومما يدل أيضاً على وجود أزمة في فهم (العبودية) أن كثيراً من الأسئلة التي توجه لأهل الذكر والعلم تكون عن مظاهر العبادة كقيام الليل وفضائل الأذكار وتطوعات الصيام والتتابع بين الحج والعمرة والنذور وصلة الأرحام وغير ذلك، بينما القليل من الأسئلة تتجه لأعمال القلب كالإشفاق والوجل وتحقيقه، والتوكل وعلله، والزهد وحقيقته، والإخلاص ودرجاته، واليقين وعينه، ثم من الغبن أن مثل هذه المواضيع توصف بأنها وعظيةٌ ليست علمية فكرية! حتى أن طالب العلم يضع خطة لدراسة العلم، وفي هامشها شيء من الرقائق والمواعظ، فأصبح بعض طلبة العلم ذا قوة علمية مع ضعفٍ في تصوراته عن العبودية والأعمال القلبية.

٨ ـ ومن أكثر المظاهر التي تدل على وجود أزمة في فهم العبودية عدم تصور ذهن المسلم المعاصر باجتماع العبودية مع الغنى المالي؟ وأن الزهد يعني قلة المال بالدرجة الأولى، وأن من فتح الله عليه في ماله وأعراضه لا يمكن أن يكون

زاهداً؛ إذ لو تزهد لخرج عن ماله، هكذا يفهم المسلم المعاصر عبودية الافتقار لله التي هي من أجل الدرجات، بينما نرى ابن القيم لما تكلم عن منزلة العبودية في كتابه العظيم طريق الهجرتين، وأوضح حال العبودية بالفهم الحقيقي الشرعي لها، قال: «فهذا العابد لو كان بيده من المال مثل جبال الدنيا لم يضره»[1]. وذلك كحال أغنياء الأنبياء عليهم السلام كسليمان وداود ويوسف عليهم السلام، وأغنياء الصالحين كذي القرنين، وأغنياء الصحابة كعثمان وابن عوف رضي الله عنهم، وليس القصد بيان علاقة العبودية بالمال وإنما بيان مفهوم معاصر خاطئ للعبودية نتج عنه أزمة في فهم العبودية.

إن الأزمة في فهم العبودية هي فرع عن أزمة الظاهر والباطن، فقد كانت الأمة حين الإيمان في العهود الراشدة تعتني بالجوهر أكثر من المظهر، فتعتني بأعمال القلوب أكثر من أعمال الجوارح، وليس القصد إهمالها إنما كانوا يبذلون جهداً مضاعفاً لإصلاح قلوبهم، وحينها تصلح ظواهرهم، وانعكس هذا الاهتمام حتى على حياتهم الاجتماعية والأسرية فكانت قائمةً على الاهتمام بحقائق الأشياء دون مظاهرها،

---

(١) طريق الهجرتين ٢٤/١.

واستمر الحال إلى أن بدأ الإيمان يختل في حياة الأمة فاختل باختلاله بقية مظاهر الحياة، وهذا يؤكد دور الإيمان في توازن الحياة، وفي الزمن المعاصر بلـغ الاهتمام بالمظهر =الظاهر ولو على حساب الجوهر = الباطن مبلغاً خطيراً.

ولا تتوقع ـ القارئ الكريـم ـ أن التباس مفهوم العبودية أمرٌ سهل كغيره من أخطائنا التي نتجاوزها ونوفق في غيرها، كلا ليس الأمر كذلك، إن غبـش مفهوم العبودية يعني أننا لم نحقق الغاية التـي خُلقنا لأجلها! فانظر كـم نحن مغرورون بأنفسـنا حين نظن أننا تقدمنـا في منازل العبوديـة بينما في الحقيقة لم نحسـن تصـور العبودية، ولم نصل بعـدُ للفهم الكامل لها! فضلاً أن نكون ارتقينا فيهـا، إن بيننا وبين فهم العبوديـة كما بيننـا وبين مراتـب الصحابة، ولا تسـتعجل باسـتغراب ذلك، فإن من فهم العبودية سار على دربهم والله يلحقه بالصالحين، أما من لم يعرف صبغة العبودية التي خُلق لأجلها، وتمسـك ببعض مظاهرها فبينه وبين القوم سموات وأرضين. أقول ذلك تحفيزاً لأنفسـنا أن نتوقف قليلاً لنجدد فهم ديننا وعبوديتنا لله سبحانه الملك الحق المبين.





العبودية صبغة الله

لما ذكر الله دينه وشرعه الذي أنزله على أنبيائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى قال بعدها: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨] أي: قل لهم يا محمد: أيها اليهود والنصارى، بل اتبعوا ملة إبراهيم، صبغة الله التي هي أحسن الصِّبَغ، فإنها هي الحنيفية المسلمة، ودعوا الشرك بالله، والضلال عن محجة هداه[1].

فما معنى الصبغة في الأصل؟ وما المراد منها في الآية؟ ولم سماها صبغة؟ وما دلالات هذا المسمى؟

أما معناها: فالصبغة هي تلوين الأشياء كالثياب ونحوها بألوان معينة، ومنه أيضاً صبغة الجلد وهو لونه.

والمراد منها: دين الله وشرعه والإيمان به سبحانه، فيكون المراد من الآية: صار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة[2].

---

(١) تفسير الطبري ٣/١١٧.

(٢) تفسير السعدي ٦٨.

وسبب وصفه للدين والعبودية له سبحانه صبغة: لأن المراد من العبودية والتدين والإيمان أن يكون كصبغة الثوب والجلد في ملازمة الإنسان، فالصبغة للثوب تلازمه ولا تنفك عنه، والصبغة للجلد كذلك، فكما أنك تدخل المسجد وعليك صبغة ثوبك وملابسك وجلدك وتخرج وهي معك، وتمارس حياتك وصبغتك معك أينما ذهبت، فإن أخلدت للنوم نمت والصبغة ملازمة لك لا تفارقك، فكذلك الله يريد أن يكون إيمانك ودينك وإسلامك أن يلازمك في كل أحوالك ملازمة صبغتك لك، وبهذا لا يريد أن يكون لك أكثر من صبغة تدخل بها وتخرج بدونها، فليست هذه صبغة لازمة، وإنما تلون وتغير.

وأما دلالات الوصف بالصبغة: فيدل على أن الظاهر والباطن مصبوغ بها، كما هو الحال في صبغة الثوب، وكذلك الإيمان ينبغي أن يكون صابغاً لظاهر العبد وباطنه، فقلبه مصبوغ بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وظاهره مصبوغ بشريعة الإسلام، فاجتمع ظاهره وباطنه على ذات الصبغة.

وهذا يكشف جزء من حالات العبودية في كون العبودية مستمرة لا ينفك عنها العبد المؤمن، فهو متعبد لله داخل

المسجد وخارجه، وفي مجلس العلم ومتجره، ونومه ويقظته، ومنطقه وسكوته، وجميع أحواله.

إن الشعور الذي يصاحبنا حينما نذهب للمسجد يوم الجمعة، أو أثناء السفر للعمرة والحج، فيصيبنا زحام أو تعب ومما لا تشتهي أنفسنا ومع هذا تجد أنفسنا مطمئنة محتسبة غير منزعجة، إن الذي خفف على النفس ذلك هو استشعارها لعبودية الله، هذا الشعور وأعلى منه ينبغي أن يصاحبنا في كل حياتنا إن كنا ندعي أن حياتنا ومماتنا لله.

إن أدق ما يعالجه لفظ الصبغة أنه يوحد في الاهتمام بين الظاهر والباطن بأن يكون لوناً واحداً، كما أن أخطر ما يواجه مفهوم العبودية هو التفريق بين ظاهر العبد وباطنه، وأخطر من ذلك أن يهتم العبد بظاهره ويهمل باطنه، إذ ذلك يعني خللاً في الصبغة، وبالتالي سيكون لونه مفضوحاً، وكذلك الحال في العبودية يجب تناغمها بين الشكل الخارجي للإنسان وبين باطنه وقلبه.

ولما صعُب على النفس أن تهتم بالباطن ـ بأن تحقق أعمال القلوب ـ جعلت قوتها في الاهتمام بالشكل الخارجي، فأصبح البعض يعتني بمظاهر التدين الخارجية

أكثر من عنايته بتحقيق معنى صبغة التدين على باطنه وظاهره، فيجتهد في تحقيق أفعال الجوارح ولو كانت سنةً ويهمل أعمال القلب الواجبة، ويلوم نفسه على خيانة عين وزلة لسان وبطشة يد أكثر من لومه لنفسه على ما يحتويه قلبه من أمراض، وهذا كله لأن مفهوم العبودية لم يكتمل في أذهاننا وتصوراتنا، فما كان منا إلا أن تصورنا أن صبغة الإيمان هي أعمال الجوارح فاعتنينا بها على حساب فقه أعمال القلب ـ الصبغة الباطنة ـ.

والعجيب أن هذا التفريق بين الخارج والداخل انعكس على حياتنا فحينما نعجز عن تحقيق عمارة المساجد نعوض النقص بزخرفة المساجد، وحينما نكسل عن تدبر القرآن وفهمه نعوض نقصنا بجرده سريعاً ـ إن حصل ذلك ـ وحينما لا نستطيع تحقيق الخشوع في ركعة نعوض ذلك بكثرة الركعات، وحينما لا نفقه معنى تسبيحة وتحميدة وحوقلة نعوض نقصنا بالإكثار منها مغترين بالعدد، وهكذا يستمر انفصال الباطن المقصود عن الظاهر التابع، حتى أصبح مفهوم العبودية عندنا مجموعة أفعال للجوارح، فانظر ما أبعد هذا الفهم عن معنى الآية وصبغتها.

وبهذا انكشـــف لنا جزء من معاني العبودية ودلالاتها في التـــزام الظاهر مع الباطـــن، وأن يوجه الاهتمـــام للباطن فإن الظاهر تبعٌ له، فاجعل صبغة العبودية مشروع حياتك.



الله يُحب أن يُعبد

لن أذكر آيات العبودية في القرآن لكثرتها، لكني سأكتفي بذكر المفردات التي وردت[1]، وهي:

﴿عَبَدَ﴾، ﴿عَبَدتُّمْ﴾، ﴿عَبَدْنَا﴾، ﴿عَبَدْنَهُمْ﴾، ﴿أَعْبُدُ﴾، ﴿نَعْبُدُ﴾، ﴿تَعْبُدُ﴾، ﴿تَعْبُدُونَ﴾، ﴿نَعْبُدُهُمْ﴾، ﴿يَعْبُدُ﴾، ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾، ﴿يَعْبُدُوهَا﴾، ﴿أَعْبُدُ﴾، ﴿فَاعْبُدْنِي﴾، ﴿فَاعْبُدْهُ﴾، ﴿اعْبُدُوا﴾، ﴿اعْبُدُوهُ﴾، ﴿عَبَدتَّ﴾، ﴿الْعَبْدُ﴾، ﴿عَبْدَنَا﴾، ﴿عَبْدِهِ﴾، ﴿عَبْدَيْنِ﴾، ﴿الْعِبَادِ﴾، ﴿عِبَادِي﴾، ﴿عِبَادَكَ﴾، ﴿عِبَادِنَا﴾، ﴿عِبَادِهِ﴾، ﴿لِلْعَبِيدِ﴾، ﴿عَابِدٌ﴾، ﴿عَابِدَاتٍ﴾، ﴿عَابِدُونَ﴾، ﴿عِبَادَتِكُمْ﴾، ﴿عِبَادَتِهِ﴾، ﴿عِبَادَتِي﴾.

وتحت كل مفـردةٍ مجموعةٌ من الآيات، هـذا كله ـ وإن استطلت هذه المفردات ـ لتعلم مقدار محبـة الله للعبودية، وحضورها في القرآن، وأنها تستحق بهذا الحضور أن تكون غاية وهدفاً في الحياة.

---

(١) أخذتها من المعجم المفهرس لألفاظ القـرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، مادة (عَبَدَ).

وتجد في القــرآن أن الله إذا أراد أن يمدح أحــداً من خلقه وصفه بالعبودية، فقال عن سليمان ﷺ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠]، وقال عن أيوب ﷺ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾، وقال عن جملة منهم: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الصافات: ٨١]، ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الصافات: ١٢٢]، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]، وقــال عن لوط ونوح ﷺ: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ [التحريـم: ١٠]، وقال عن النبي محمد ﷺ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإســراء: ١] وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

ليســت العبودية مطلوبةً من الثقلين دون غيرهما، بل الله خلــق المخلوقات كلهــا للخضوع لــه والتذلل لــه ومحبته والتسـبيح بحمده، فالله يُحب أن يُحمد، ويحب أن يُســأل، ويُحــب أن يُرجى، ويُحــب أن يفتقر إليه؛ لأنــه أهلٌ لذلك، ولهذا خلق الخلق، ويخلق ما يشــاء، ولا يــزال يخلق، وهذا شأن الملك، والله ملك لا كالملوك إذ ليس كمثله شيءٌ.

وذكر الله لنا عبودية المخلوقات وتذللها لله ســبحانه، فذكر تذلل ـ العالم العلوي ـ الملائكة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ [الأعــراف: ٢٠٦]، وبيّن ســجود كل شيء فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]، وذكر

تسبيحها، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١]، وعمّم سبحانه، فقال: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وذكر تسبيح كل شيء فقال: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ١]، وقال: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحشر: ١]، وقال ﷺ عن النمل: «أمة تسبح لله»[١]. وقال ﷺ عن الدواب: «وما من دابة إلا وهي تفزع يوم الجمعة»[٢] إشفاقاً من قيام الساعة، ومن فقه الحيتان أنها تستغفر للعالِم[٣] لأنه ينشر العلم بالله بين الناس ويدل العباد على الله، ولو تتبعنا هذا الباب لطال المقام إلا أن المراد أن الخضوع والذل لله والعبودية له هي وظيفة الكون كله، علويه وسفليه، فلست أنت وحدك أيها الإنسان المطالب بالعبودية دون غيرك.

وعلى هذا فالعابد لله متوافق مع الكون من حوله، ولو فُتح للعبد أن يسمع الأصوات من حوله لشاهد كل من فوقه وتحته يسبح بحمد الله أشد مما تسمعه يوم الجمعة من قراءة الناس جميعاً مع تداخل أصواتهم، وهذا مشهد يحي في نفس

(١) رواه البخاري (٣٠١٩).

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه ٣/١١٤.

(٣) رواه أبو داود (٣٦٤١).

المؤمن الحياء مـن الله أن يكون غافلاً بيـن مخلوقات منيبة أوَّاهةٍ لربها.

ولعل هذا يكشـف لـك جـزءاً مـن مفهـوم العبودية والخضوع، فالمخلوقات خاضعة لله، ترى نفسها تحت تصرفه، وفي قبضته وملكه، معتمدة عليه في رزقها، لا تنسب لنفسها حولاً لها ولا قوة، ولا تتفاخر على غيرها، متعلقة بالله فاطرها، محققة ما يحبه من التذلل له والتحميد والتقديس باسمه، فمن حقَّق العبودية من مخلوقاته فقد حقَّق شيئاً يحبه الله، فالله يُحب أن يخضع له، وهو أهلٌ لذلك.

وكل الشـرائع على اختلاف مناهجها إلا أنها اتحدت كلها في تعبيرها عن خضوعها لله عن طريق نهجٍ وشرعٍ معين شرعه الله لهم، كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فطلب الله من جميع البشـر الذين سـكنوا الأرض أن يتجهوا بقلوبهم له، فيفردونـه بالمحبة والخوف والتعلـق والاعتماد والرجاء لـه وحده، وجعل لـكل أمة طريقة يتذللـون له بها، ويخضعون له بها، وما اختارها لهـم إلا أنه يحب هذه الطريقة دون غيرها، وهو ملك يشرع ما يشاء ويأذن بالدخول عليه كما يريد.



صفات الإنسان تؤهله للعبودية

لما خلق الله الإنسان خلقه على هيئة تؤهله للعبودية، ومن ذلك:

١ ـ من حيث أصل أبيه:

فأصل أبينا آدم عليه السلام من التراب، ومعلوم أن التراب ليس معدناً نفيساً غالياً، ولهذا افتخر عليه إبليس بسبب أصل مادة خلقه، فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [صٓ: ٧٦]، فالتراب هو أقل الأشياء وأرخصها وأدناها.

فمَن كان أصل أبيه من تراب وسيعود إلى تراب عن قريب، أليس تعبده لله وخضوعه سيكون سهلاً عليه؟! ماذا لو كان أصل أبينا من ذهبٍ وجواهر، هل سيكون التعبد على أنفسنا الطاغية ميسوراً مبذولاً؟!.

٢ ـ من حيث أصل خلق الإنسان:

فقد خُلق الخلق من ماءٍ مهين وضيعٍ مستقذر كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، وكلمة ﴿مَّهِينٍ﴾

تفيد قلة الشأن والاحتقار، وهي صيغة مبالغة على وزن فعيل، أي: بلغ غاية الاحتقار، وهذا أيضاً يهيئ النفس البشرية للتعبد والخضوع والـذل لله، فمَن كان هـذا أصله فـلا يليق به إلا الاستعباد لله سبحانه وحده.

ماذا لو كان مادة خلقنا من شيء مبجل؟ هل ستلين قلوبنا بالتذلل والافتقـار لله؟! إن بعض الأنفس اليـوم تتفلت على العبوديـة وهي من مـاء مهيـن، فكيف لو كانت من شـيء جليل؟!

ومن أساليب القرآن أن الله ينكر على المتكبر عن العبادة بتذكيـره بأصل خلقه كمـا قال تعالـى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧] وهذا اسـتفهام إنكاري مختوم بـ (إذا) الفجائية المفيدة للعجب، إذ كيف يليق بمخلوقٍ أصلُهُ نطفة أن يكون خصيماً مبيناً في خصومته غير مستخفٍ بها.

أرأيتم مثلاً: شـخصاً صاحب عيبٍ، وقد حُفظَ عنه ذلك العيب؛ فإنه لا يليق به إلا أن يكون منكسـراً متباعداً، فكيف إذا تفاجأت بأن ذلك الشخص المعيب وإذ به يطالب ويخاصم ويعاند أهل الشرف والرفعة ويرد عليهم؟!.

٣ ـ من حيث الحجم والهيئة:

فما الإنسان مقارنة بالجبال والأرض والسموات والكون؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [المرسلات: ٢٠].

ومن المخلوقات ماهو أقوى من الإنسان وأطول منه وأحد ذكاء، ولن يبلغ الإنسان طول الجبال، ولن يخرق الأرض! وهذا أيضاً يقوده للتعبد لربه والتذلل له وحده، وإنزال حاجاته وفقره بربه ومالكه.

يا تُرى لو كان الإنسان أكبر من الجبال هل ستلين نفسه للانقياد والتذلل، أم سيعتمد في كثير من أموره على قوته وطوله وصلابته؟! أليس ذلك تهيئةً لتعبده لله.

٤ ـ من حيث علمه وملكه:

فالإنسان لا يعلم غيبه، ويجهل عاقبة أمره القريب والبعيد كما قال: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤].

فالقريب كسبُهُ غداً، والبعيد أرض موته وكلها مجهولة للإنسان.

ومن حيث الملك فالإنسان لا يملك شيئاً أبداً، وكل ما ملكه فهو ملك مؤقت بوقتٍ كما قال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم: ٤٠].

وقال: ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٩١] والاقتران بين ملكهِ كل شيء والأمر بالإسلام في الآية ظاهر التناسب، فمن مَلَكَ كل شيء وجب الاستسلام له، ومن أسماء الله الوارث فما عداه فهو ميت وزائل.

والله يملك كل شيء كما قال: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٤٢] فمَن كان هذا حاله ألا يليق به أن يُذلَّ له ويفتقر إليه ويغتنى به عن كل شيء؟!

ولِيُؤكِّد الله لنا أنه لا أحد يملك من دون الله شيئًا فقد قال لنبيه ﷺ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وجوانب ضعف الإنسان كثيرة جداً:

فنشأته وجوعه ومرضه وعطشه وخوفه ونومه وقلقه وحيرته، وكذلك جهله عن مصلحته، ومن ضعفه محدودية حواسه، وكذلك هو ضعيف أمام رغبات نفسه وشهواته، وضعيف في تحمل المشاق والمتاعب!



ومن ضعفه أنه لا يحقق كل ما يريد، ولا يتأتى له كل أمانيه! ولا يعرف الغيب، ولا يغير أقداره، ولا يهب لنفسه كل ما يطلبه. هذا كله يؤهله للعبودية ويجعلها خياراً ضرورياً أمامه لا يليق به إلا العبودية، فإن من هذا شأنه وحاله لابد أن يعتمد على من بيده كل شيء ويفعل ما يريد، فيتوجه إليه ويرغب إليه، ويخضع له، ويستسلم له، وينقاد لأمره، ويوليه على كل شيء.

وإذا تأملنا الأمور السابقة استنتجنا ما يلي:

١ ـ أن الإنسان فقير ضعيف لا يملك شيئاً لنفسه التي بين جنبيه.

٢ ـ أن الإنسان لا يليق به وله إلا العبودية لله.

٢ ـ أن العبودية خيار ضروريٌّ للإنسان، لا يمكنه الاستغناء عنها، ولا العيش بدونها.

٣ ـ أن كمال الإنسان في عبوديته وذله لله، إذ هو يملك كل شيء، وغيره لا يملك شيئاً.

وعلى هذا؛ فإن هناك انسجاماً بين الإنسان وبين ما فُطر عليه من العبودية لربه، فلا تظن أنّ الإنسان عليه أن يجاهد نفسه على العبودية مجاهدته لأمر خارجٍ عن فطرته وطبيعة



خلقــه، بــل إن الخــارج عــن العبودية قــد تكلّف لنفســه ما لا يتناسب معها إلا مكابرة.

وبهذا ينكشف لنا أيضاً جزء جديد من معاني العبودية لله بأنه الشعور بالافتقار إليه ضرورة، وأنه لا غنى عنه طرفة عين.

عرفنا أن الإنســان مهيأ للعبودية في أصلــه وأصل أبيه، وحجمه، وعلمه، وأعراضه، فماذا عن فطرتــه؟ هل العبودية تتوافق مــع الفطرة؟ هل الفطرة تقتضي تذلــلاً وتعلقاً ومحبة ورجــاءٍ لله؟ أم أن العبد عليــه أن يقصر نفســه على خلاف ما فُطرت عليه لينال أجر المشقة؟ هذا ما أستعين الله في بيانه في العنوان التالي.





الفطرة وعبودية الله

فسر مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨] بأنها: فطرة الله التي فطرها(١)، وابن زيد يفسر قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] بأنها: الإسلام(٢)، ويقصد به أصل الإسلام الذي هو الاستسلام لله، وهو خضوع القلب مستسلماً لله، ومعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يجعل فطرة الله التي فطر الناس عليها هي الإخلاص وإرادة وجه الله(٣).

فمن توفيق الله للإنسان أن جعل محبته لربه، واعتماده عليه، واستسلامه له، وخضوعه وانقياده له، ورجاؤه، وتعليق آماله به، وإرادة وجهه وحده أمر موافق للفطرة، لا يجد العبد فيه مشقة في صرف قلبه إليه، ويؤكد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ففقر العباد إلى ربهم أمر ذاتي لا ينفك عنهم، كما أن غناه أمر ذاتي(٤)،

---

(١) تفسير الطبري ٢/٦٠٥

(٢) تفسير الطبري ١٨/٤٩٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) طريق الهجرتين ١/١٢، وعامة مافي هذا العنوان من هذا الكتاب العظيم.

ومجرد كون العبد مخلوقاً هذا دليلٌ كافٍ على كونه محتاجاً، فهو مخلوقٌ فقير محتاج لغني كامل يعلق عليه آماله وحاجاته، وينزل به فقره، ويستسـلم له ويطيعه وينقاد لأمره، لأن الفقر للعبد ثابت له مـن كل وجه، إذ يسـتحيل أن يكـون العبد المخلـوق إلا فقيراً محتاجاً لربه، كما أنه يسـتحيل أن يكون الرب إلا غنياً كريماً سبحانه.

فأكمل العباد وأعلاهم هو أعظمهم استشعاراً لحاجته لربه وفقره لـه، وضرورته إلى ربه، وعدم اسـتغنائه عن ربه طرفة عين ولا أقل من ذلك، فكلما استشعرت ذلك فأنت عابد لله، وهذا الشعور يستغرق عليك كل لحظات وقتك لا يغيب لك عن بال، كحال العبد الحقيقي مع سـيده، وهذا المعنى ظاهرٌ في قول النبي ﷺ: «ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك»[١].

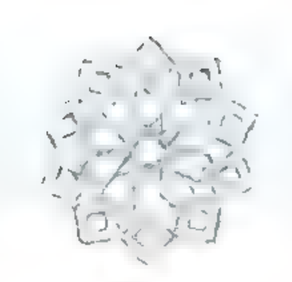
فالعبد الذي يسـعى في تحقيق عبوديته لربه وتذلـله له، وامتلاء قلبه من محبته والأنس به، واليقين به والاعتماد عليه، والتوكل عليه، وتفويض أموره إليـه، وإنزال ضعفه به، ورفع

---

(١) مسند أحمد (٢٠٤٣٠) وصححه ابن حبان.

حاجاته إليه، والرضا به وبتدبيره واختياره = إنما هو ساعٍ في تحقيق فطرته التي اجتالته الشياطين عنها، ولهذا لن تجد أيها العبد عنتاً ومشقة في الوصول للعبودية، فاستعن بالله.





أصل العبودية وأساسها

أصل العبودية هو **الخضـوع والتذلل**[١]، ولفظ التعبد يدل على **لينٍ وذلٍّ**[٢]، ومن جميل اللغة تفرقتها في الفعل بين من كان عبداً لله، ومن كان عبداً مملوكاً لآخر، فالعبيد لله يقال في اللغة: عَبَـدَ، يَعبُد، ومـا كان للمملوك يقال لـه: عَبُدَ أي أقرَّ بالعبودية له، وناسب أن تعطى العبودية لله الفتحة ـ عَبَدَ ـ التي تناسـب سـهولة العبودية لله ومناسبتها للإنسـان ورفق الله، وناسـب أن تعطى الضمة ـ عَبُدَ ـ للمملوكين للناس لشـدة الناس ومشقة التعبد لهم.

وقد جعل ابن تيمية أساس العبودية **رقُّ القلب**[٣]، أي ذل القلب وكونـه أصبـح رقيقاً، وعلـى كلام ابـن تيمية فكل ما اسـترقَّ القلب فهو عبـدٌ له، فإن ملك القلـب وتحكم به وسـيطر عليه مالٌ فهو عبدٌ للمال، وإن اسـتولى على القلب

---

(١) لسان العرب، مادة (عبد)، ٣/٢٧٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ٤/٢٠٥.

(٣) العبودية، ص٦٠.

واسترقه امرأة فهو عبدٌ لها، وإن ملك قلبه رئاسةٌ وتعلق بها وحرص عليها وسعى لها فهو عبدٌ لها، فعلى هذا من أراد أن يعرف مَن يعبد؟ فلينظر إلى مَن مَلَك قلبه، وتحكم به، وسيطر عليه، وجعله يفكر فيه، ويقضي يومه بطلبه، ويحزن لفواته، ويفرح بحصوله، فهذا الذي تعبُدُه.

ومع الخضوع والذلّ يأتي **الطمع والحرص**، ويقال: الطمع غلٌّ في العنق، قيدٌ في الرِّجل، فإذا زال الغلُّ من العنق، زال القيدُ من الرِّجل[١]، فالطمع تُستعبد به القلوب، فإذا طمع الإنسان في أمرٍ ورجاه وحرص عليه، فإن قلبه يتعلقُ به، ثم يصير فقيراً إلى حصوله، وفقيراً إلى من يظن أنه سببٌ في حصوله، وهذا عامٌ في كل الأمور يشمل المال والجاه والمنصب والرئاسة والشهرة وغيرها، وعلى هذا كلما قوي طمع العبد ورجاؤه لأمر ازداد عبوديةً له، وبالمقابل إذا طمع في فضل الله ورحمته، وتعلق بها وبالأسباب الموصلة لها مما شرعه الله صار عبداً لله. ومن هنا صار لزاماً على المؤمن ألا يطلب إلا الله، وألا يستنصر إلا بالله، وأن يطلب رزقه من الله، وأن يعلق قلبه بالله فقط ليحقق العبودية الكاملة له سبحانه.

---

(١) المصدر السابق، ص٦١.

ثم بعد الخضوع والتذلل والرق والحرص والطمع يأتي **التعلــق والالتفات**، بــأن يلتفت قلبــه لذلك الأمــر، وهو كالنتيجة لما سبقه، فإذا تعلق قلبه لأمر والتفت إليه، وأشغله انتظاره طلبه له فقد صار عبــداً لذلك الأمر، وهذا ما يُعرف بالعبادة.

ثم يتطور القلب فيطلب ذلك الشيء الذي يريده، ويسعى له بكل وسيلة، ويعتمد قلبه ويستعين بما يظنه يوصله، وهذا ما يعرف بالاستعانة، كما أن الأول العبادة، ولما كانت العلاقة وثيقة بين العبادة والاستعانة جمع الله بينهما فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فاتضح أن العبوديــة هي عبودية القلــب، والحرية حرية القلب، والــذي يهمنا هنا أن نعــرف ما هو أســاس عبودية القلب؟ وما أصل تلك الأعمال التي فعلها القلب؟

أساس هذه الأفعال كلها **خضوع القلب**، فنلاحظ أن القلب لما خَضَعَ قاده خضوعه للتذلل والاسترقاق والانقياد والحرص والتعلق والالتفات والاعتماد وغيرها.

وسرُّ هذا الأمر أن القلب ضعيفٌ لا بد له من متعلق يتعلق به، ويتمســك به؛ فكما خلــق الله العين ليُبصَــر بها، والأذن

لِيُسمع بها، فإنَّ الله خلق القلب لمعرفته والعلم به ومحبته سبحانه، فجعله ضعيفاً يأخذ كماله وقوته من ربه فقط، فإن لم يتعلق بالله كان أسيراً، وإن تعلق بالله وتعبد له وحده كان طليقاً. فلو عرف العبد لما جعل خضوعه إلا لله ليكون عبداً لله وحده.

فأصل العبودية هو الخضوع والذل، فلا يمكن لك فهم العبودية حتى تفهم الخضوع والتذلل لله كيف يكون؟!

وزيادة على ما سبق نجد كل ما شرعه الله سيؤدي للخضوع ولا بد، فكل عبادة شرعها الله وأمرنا بها، واجبة أو مستحبة إلا وتقرأ الخضوع في ألفاظها، أو هيئتها وشكلها، أو حركاتها؛ هذا مراد الله من العبادات، وهذا ما سأبينه لك في العنوان التالي.





حتى هيئات العبادة تورث الخضوع لله والعبودية له

إن من الفهم الصحيح للعبودية أن كل شيء من شرع الله يؤدي إليها، ومن ذلك هيئات العبادة، فالتطهر قبل الصلاة والتنظف للدخول على الملك، مع التوبة بعد الوضوء بالذكر الوارد، فاجتمع للعبد طهارة الظاهر مع الباطن، وفي ذلك معانٍ من التهيب له والتخضع، ويرى ابن القيم أن ذهاب العبد لبيت ربه ومسجده بمثابة رجوع العبد إلى سيده وخضوعه له، فإذا وقف بين يدي ربه وقف موقف العبودية والتذلل والانكسار، فقد استدعى عطف سيده عليه وإقباله عليه بعد الإعراض، فإذا كبَّر كان بمنزلة مَن ألقى السلام مستسلمًا ناكسَ الرأس، خاشعَ القلب، مُطرِقَ الطرف، لا يلتفت قلبه عنه ولا طرفُه يمنةً ولا يسرةً، بل قد توجه بقلبه كله إليه، وأقبل بكليته عليه[1]، وهذا كله خضوع وذلٌّ.

---

(١) مسألة السماع، ٩٣ وما بعدها.

وفي الصيام كذلك الحال فيمسك عن شهواته طاعة لمولاه، شأن العبد الذي منعه سيده، فاستجاب إذعاناً وخضوعاً لأمر سيده.

والزكاة أيضاً تورث الخضوع والعبودية لله فيخرج العبد ما يحبه من مال حيث أمره سيده، وكل درهم أخرجه لله سيده، فإنه سيخرج من قلبه تعلق بالدنيا وأغراضها على قدر ما يخرج من المال، ليبقى قلبه لا يشغله شيءٌ عن مولاه.

وهذا الشأن أيضاً في الحج فإنه يتجرد من ملابسه طاعة لله شأن العبد الذليل أمام سيده، ثم يمسك عن المحظورات التي تشتهيها نفسه كحال العبد الذي تخلى عن رغباته تحقيقًا لأمر مولاه.

وكذلك الأذكار وما تجلبه للعبد من خضوع، فالتكبير هو مناداة بأن ماعدا الله صغير، والتهليل هو إعلان للنفس عن التعبد لله، والتسبيح هو تنزيه لله من كل ما لا يليق به مما نقوله ونفعله، فيورث ذلك انكساراً وذلاً، وهكذا الشأن في كل شرع الله ودينه، ولتنضبط لديك القاعدة فانظر إلى أثر العبادة على القلب ستجد ولا بد أن من ضمن الآثار تحقيق الخضوع والذل لله، وهذا هو لب العبودية.

والنتيجة مما سبق: أن كل عبادة أمرنا الله بها هي لتحقيق خضوع القلب وذله وانكساره لله، وليس هذا فحسب بل مَن أحسن فهم العبودية والتذلل لله فقد فُتح له في معرفة مقاصد الشريعة من الأحكام الشرعية، فهناك الكثير من أفعال الشريعة قد لا يظهر لنا من أول وهلة الحكمة من مشروعيتها، فإذا عرفنا العبودية والتعبُّد أدركنا أسرارها، وهذا تجد بعضه في العنوان التالي.





فهم العبودية يساعد في فقه مقاصد الأحكام الشرعية

من علو منزلة العبودية والافتقار عند أهل العلم أنهم يستعملون قاعدة العبودية في تقريرهم الأحكام الشرعية، وكذلك في ردهم على الشبهات العقدية، ولا يكون ذلك إلا لوضوح منزلة العبودية وصلابتها، ومن ذلك:

مسألة: التفضيل بين القيام والسجود:

اختلف العلماء في القيام والسجود، أيهما أفضل؟

فمن رجَّح السجود فالعلة لديه: أن السجود هو سر العبودية، فإن العبودية هي الذل والخضوع، يقال: طريق معبد، أي ذللته الأقدام ووطأته، وأذل ما يكون العبد وأخضع إذا كان ساجداً[1]، فجعلوا فقه العبودية من أدلة الترجيح بين الأقوال المختلفة.

مسألة: اتخاذ أواني الذهب والفضة:

لا يجوز استعمال آنية الذهب والفضة؛ لورود النهي عن ذلك، ولكن اختلف العلماء في الاتخاذ دون الاستعمال ـ

---

(١) زاد المعاد ١/٢٢٩.

والاتخاذ هو اقتناء آنية الذهب والفضة للزينة أو البيع والشراء ونحوها ـ فذهب الجمهور من العلماء إلى التحريم[١]، ثم اختلفوا في علة النهي، فرجح جمعٌ منهم «أن العلة ما يُكسب استعمالها القلب من الهيئة، **والحالة المنافية للعبودية** منافاةً ظاهرةً، ولهذا علل النبي ﷺ بأنها للكفار في الدنيا، إذ ليس لهم نصيب من العبودية التي ينالون بها في الآخرة نعيمها، فلا يصلح استعمالها لعبيد الله في الدنيا، وإنما يستعملها من خرج عن عبوديته، ورضي بالدنيا وعاجلها من الآخرة»[٢].

فانظر كيف استعمل الفقهاء فقه العبودية في بيان حِكَم الأحكام الشرعية، وهذا لوضوح مفهوم العبودية لديهم.

---

(١) المقنع ومعه الشرح الكبير والإنصاف (١/١٤٤)، ورجحه ابن تيمية.

(٢) زاد المعاد ٤/٣٥١.



حكمة حلق الرأس في الحج

ذكر الفقهاء بأن الحكمة من مشروعية حلق الرأس في الحج والعمرة هي إظهار العبودية لله؛ لأن حلق الرأس عبودية وذلٌّ وخضوعٌ، ومن هنا كان حلق الرأس للمشايخ ـ كما تفعله طائفةٌ من الفرق البدعية ـ بدعةٌ منكرة، وأخذٌ شيءٍ من خصائص الرب ﷻ[1].

وهناك أكثر من ثمانيةٍ وعشرين سؤالاً ذكرها ابن القيم في قولنا: «السلام عليكم» في التشهد، وكل سؤال يرتبط جوابه بفهم العبودية، وهذا دليل على وضوح صورة وهيئة التعبد في قلوبهم، ولهذا يربطون الحِكم الشرعية بها، فمَن أراد التعرف عليها فليراجعها ـ ولو ببحث سريع بمحركات البحث المعاصرة ـ في كتاب بدائع الفوائد[2]، وكلها تتعلق بالعبودية، ومنها:

---

(١) زاد المعاد ١٤٧/٤.

(٢) بدائع الفوائد ١٣٠/٢ وما بعدها.



ـ ما الحكمة في تقديم السلام على النبي ﷺ في الصلاة قبل الصلاة عليه، وهلّا وقعت البداءة بما بدأ الله به في الآية[١]؟

ـ ما الحكمة في كون السلام على النبي ﷺ في التشهد الأول وَقَعَ بصيغة الخطاب فنقول: «والسلام عليك»، والصلاة بصيغة الغيبة، فنقول: «اللهم صلِ على محمد»؟[٢].

ـ ما الحكمة في ورود الثناء على الله في التشهد بلفظ الغيبة، فنقول: «التحيات لله» مع كونه سبحانه هو المخاطب الذي يناجيه العبد، والسلام على النبي ﷺ بلفظ الخطاب مع كونه غائباً، فنقول: «والسلام عليك أيها النبي»؟

ـ ما السر في كون السلام في آخر الصلاة وليس في أولها؟

ـ لِم كان السلام في الصلاة مُعَرَّفاً، فنقول: «السلام عليكم» ولا نقول: «سلامٌ عليكم؟».

وهذا يدل على أنه من الضروري على المؤمن أن يفهم العبودية، وهيئة التعبُّد لله، وطريقة الخضوع والتذلل ليصل بذلك إلى فقه الأحكام الشرعية.

---

(١) بدائع الفوائد ١٨٨/٢.

(٢) المصدر السابق ١٩١/٢.





من خصائص القلوب

من الضروري لفهم العبودية أن تتعرف على خصائص القلب التي جبله الله عليها، بأن تفهم طبيعته، وما خُلق عليه، لِتفهم حركته وانتقاله، وسأذكر من خصائص القلب ما يكون ضرورياً في فهم العبودية والذل لله سبحانه، فمن ذلك:

أولاً: التَقَلُّب:

تميَّز القلب بتقلبه، وعدم ثباته واستقراره، واسمعوا ما قاله المقداد ﷺ: لا أقول في رجل خيراً ولا شراً حتى أنظر ما يُختم له بعد شيء سمعته من النبي ﷺ قيل: وما سمعت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياً»[1]. هل رأيتم القدر إذا استجمعت بالغليان كيف أن عاليها يكون سافلها في لحظة، وسافلها يكون عاليها في لحظة بعدها.

وهذه الصّفة دليل على رقة القلب، فيتأثر بالنظرة، واللفظة، فلا تُعرّض خضوع القلب لشيء يفسده، فما أسرع

---

(١) رواه أحمد (٢٣٨٦٧)، وصححه الألباني.



تقلب القلب وانقلابه، والذي يهمني هو أثر هذه الصفة على عبودية وخضوع القلب لله من خلال:

١ ـ ما دام أن القلب يتقلب فهو ضعيف فقير، لا يُعتمدُ عليه، فليس فيه القوة الكافية للثبات حتى يكون ثباته من غيره، ولا يملك القلوب إلا الله، فمَن أيقين بهذه الصفة ازداد خضوعاً لله الذي يملك القلوب، ورجاه وتوسل إليه وتعلق به ليمنحه الثبات.

٢ ـ ما دام أنه يتقلب فلا يأمن تبدل حاله، وتغير قلبه، ولا يحتقر غيره على حاله، إنما عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ ما دام أنه يتقلب فهو قوي الحركة وسريعها، فعلى العبد أن يستثمر ذلك في قوة سيره إلى الله.

ثانياً: في القلب إرادةٌ وطلب:

من خصائص القلب أن فيه إرادةً وطلباً مطلقاً، فمن طبيعته أنه يريد ويطلب، وهذا نتيجةٌ لفقره وعجزه، ولا يستقر بلا طلب ولا إرادة أبداً، فإن لم يرد الخير طلب الشر، وإن لم يطلب العلو والاستكبار طلب التذلل والخضوع، وليست هذه الصفة شراً محضاً إذا أحسن العبد استغلالها.

وأثر ذلك على فهم العبودية: استغلال هذه القوة الكامنة في القلب بصرفها لله، بأن يطلب العبد وجهه سبحانه لا غير.

ثالثاً: في القلب حبٌّ مطلق:

من خصائص القلب أن فيه حُبّاً، فلابد أن يُحب ويتعلق، بل إن الحبّ هو الذي يحرك القلب، فلا يتحرك القلب إلا لأنه يُحب، وهذا من تهيئة الله للقلب لأن يُحب الله، إذ أنه خلق القلب لمحبته ومعرفته، ومن لم يُحب الله فإنه يهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه، كالغصن أيُّ نسيم مرَّ به عطفه وأماله[1].

وهذا أكبر عامل يساعد العبد على فهم العبودية، بأن يصرف هذه النعمة الجليلة لمحبة الله وحده، وحتى ندرك النعمة فلنتخيل ـ مجرد خيال ـ لو كان القلب لا يُحب، ولا يبذل الحبّ إلا بصعوبة ومشقة، فكيف يمكننا أن نُحب الله جلّ جلاله؟! فالعبودية هي حبٌّ وذلٌّ.

ومن هنا كان على الأب تربية طفله على محبة الله منذ صغر سنه، لينشأ مُحِبّاً لله، وهذا يختلف عمّن قضى عمره في

---

(١) العبودية، ص١٠٤.

محبة غير الله ثم أراد أن يقصر قلبه على حبّ الله بعدما تشبث بكثير من المحبوبات، مــع أن ذلك ليس على الله بعزيز، فقد جاء الإســلام وكان أهله يحبــون غير الله، فمنهــم من يُحب النساء والمال والشهرة والفخر والكبر والعلو، فلما عرفوا الله أحبوه فخرجت من قلوبهم تلك المحبوبات.







لا غنى للعبد عن الله

إن الكلام عن افتقارنا لله كجزء من بيان حقيقة العبودية لابد أن يقترن به الكلام عن غنى الله سبحانه، وهو الغني الحميد، خاصة وأن التصور المعاصر ضاق فيه معنى غنى الله على قضية الرزق والمال تحديداً، ولا عجب في هذا التصور إذ نحن أبناء العالم المادي المعاصر، الذي طغت فيه الماديات، حتى أثر ذلك الطغيان على مفهوم العبادة.

إن أفقر العباد لله وأعبدهم له هو أغناهم به عن كل ما سواه، ولهذا قرن الله بين الافتقار واسم الله الغني فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] وسر الاقتران أن أفقر الناس إليه هو أغناهم به.

ومن تأمل شدة فقر العبد إذ لا يملك شيئاً بذاته أبداً عرف أن هذا الفقر القلبي الشديد لا يشبعه إلا غناه بربه المحمود على كل حال. وابن القيم يجعل سبب ذلك أن الله هو الغني على الحقيقة ولا غني سواه، وبناء على ذلك فالفوز به فوزٌ بالغنى الحقيقي، وفواته فواتٌ للغنى المطلق.

إن التعبد لله أن يغتني القلب به عن كل ما سواه، فكل ما يطلبه القلب من أمر هو بيد الله، والله يملك زمامه وإنشاءه ونفعه وكل شيء، فماذا يريد القلب من غير الله إذن؟! إن شعور واستشعار الاغتناء بالله، والتعلق به وحده، ينقل الإنسان في فهم العبودية مراتب متقدمة، لشدة تأثيره على مشاعر القلب وأحاسيسه؛ وبالتالي على آثاره السلوكية على الجوارح.

إن عبداً اغتنى بالله سيتوكل عليه ولا بُدَّ، وسينزل حاجته بربه حتماً، ولا يخاف من شيء غير ربه الغني؛ لأن كل ماعداه فقير، إن التعبد لله على ضوء اسمه الغني يعني اعتماد القلب على الله، وعدم التفاته لغيره أبداً، فمن كان غنياً بالله خضع قلبه له، وذل شعوره له سبحانه، واستسلم لربه وانقاد لأوامره، وسارع لطلب مرضاته إذ لا غنى له عنه، ويمتد شعور الاستغناء بالله ليجعل العبد زاهداً فيما حرمه الله، اكتفاءً برضى ربه له وعنه، بل إن استغناء العبد بربه يوحد مشاعر القلب لله وحده، إذ لا يعقل أبداً أن يغتني العبد بالله وقلبه واثق بغير الله، أو مستغيثٍ بغيره، ولا يزال الغنى بالله يطرد من القلب كل ماعدا الله وما والاه حتى يعلقه بربه تعليقاً كاملاً، وكذلك يؤثر استغناء العبد بربه على غنى النفس، فإن القلب إذا

استغنى بالله عن كل ما سواه اغتنت النفس عن طلب أهوائها، واستبدلت كسلها وفتورها بنشاطٍ وهمة وإرادة، ولا تزال النفس كذلك حتى تتغير طبيعتها فتكون نفساً مطمئنةً، فلا تسأل حينئذٍ عن استقرارها وكمالها ولذتها وغناها حتى يكون رأس أعمالها الزهد فيما عدا الله.

وإن أردت مثالاً عملياً لذلك فارجع إلى السيرة النبوية والقرون الفاضلة لترى ما فعل استغناؤهم بالله في مظاهر حياتهم، فلا يوجد صحابي واحد خاف الفقر على نفسه، مع أنهم يرون قلة ذات أيديهم، وكثرة زواجاتهم، ويتعبدون بتكثير النسل؛ ليفخر بهم النبي ﷺ، وكذلك لم يخافوا أعداءهم مع كون الأعداء يفوقونهم عدة وعدداً، وإن حصل خوف ـ كيوم الأحزاب ـ فهو عارض أو خوف طبيعي يزيدهم تعبداً لربهم؛ ليزيل خوفهم، أما أن يصل بهم الخوف إلى ترك عبوديتهم وانقطاعها فلم يكن أبداً، وشاهد ـ وأنت تقرأ في سيرة القوم ـ نظرتهم لما أعطاهم الله من الأسباب المادية ومكنهم منها لتستنتج أثر الغنى بالله على نظرتهم تلك، فليسوا معظمين للأسباب تعظيماً يجعل قلوبهم تعتمد عليها، وتطمئن إن كانت الأسباب قوية، وتضطرب إن كانت الأسباب ضعيفة،

كلا فليسوا كذلك، إنما يفعلون الأسباب تحت سلطان استغنائهم بالله، فيفعلونها تعبداً وطاعة لله الذي أمر بها، ويجتهدون في تحقيقها، وليس اجتهادهم فيها ظناً منهم أن هذا الاجتهاد والحرص سيحقق مرادهم، أيضاً ليس الأمر كذلك، إذ لا يمكن لقلوب امتلأت غنى بالله أن تكون نظرتها للأسباب بهذا التصور، إنما يجتهدون في تحقيق أسبابهم المادية ـ كالمال والجاه والسلاح والحجة والاستعداد وكل سبب ـ يجتهدون لئلا تضطرب قلوبهم بعد ذلك، فإن العبد إن قصر في بذل سبب ثم أراد أن يعتمد على ربه في حصول مراده، كلما تذكر ذلك السبب الذي قصر فيه اضطرب ولا بُدَّ، فكانوا يغلقون على القلب كل ما يصرفه ويعيقه ويشوش عليه عبوديته وتعلقه بربه، فينتج عن ذلك أنهم لم يكونوا ساخطين لشيء من أحكام الله، ولا يخاصمون إلا في حقوق ربهم، وهذا كله لإيمانهم الجازم بقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [السجدة: ٥].

واقرأ السيرة باحثاً عن مظاهر استغنائهم بالله، وافتقارهم إليه في كل شؤون حياتهم؛ لتعلم حينئذٍ أن العبودية لله هي استغناء القلب به عن غيره، فمن استغنى قلبه بالله لا يشغله إلا قضية واحدة فقط وهي: استقامته على شرع ربه تعظيماً له،

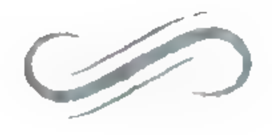


وما عدا ذلك فلا يكون لكمال استغنائه بالله، ولتصل إلى اليقين في ذلك انظر إلى من لم يغتنِ بالله وهم الذين نسوا الله فنسيهم! فإن الفقر والهلع والجزع والخوف والاضطراب مجتمع عليهم من كل أطرافه.

وللشيطان هنا حفرة يصطاد بها، فيلقي في الذهن بأن هذا الكلام يقود إلى الانعزال والكسل وترك حركة الحياة، ومرة أخرى ارجع للسيرة لترى هل حدثت هذه الخاطرة الشيطانية؟! لا يمكن لها أن تحدث إذا كان تصور الاستغناء بالله صحيحاً شرعياً، وللعلم لن تكون هذه آخر مرة يوسوس إليك الشيطان بهذه الخاطرة، ليصدك بها عن فهم العبودية، ولنختم الكلام عن الغنى بالله بأنه يحصل للعبد بسبب دوام مشاهدة القلب لصفات الله، خاصة أولية الله، فالله هو الأول وليس قبله شيء، وهو الآخر وليس بعده شيء، فالله سبحانه قبل الأسباب والأغراض؛ لأنه مسببها، والله بعد الأسباب والأغراض؛ لأنه الباقي بعدها، فمن استشعر ذلك خضع وذل لربه وحده دون ما سواه سواء في المسجد أو خارج المسجد، وأثناء قراءته بمصحفه وبعد إغلاقه، وأعلى الغنى بالله غنى الرسل وأتباعهم بالله، فهم يشهدون بقلوبهم بأن إلاهية الله حق



وما عداه باطل باطل، فله التذلل وحــده، وله الحكم وحده، وله الإذعــان وحده، وله المحبة وحــده، فانتهت إليه رغبات العباد، وتوجهت إليه طلباتهم، وهذا أحد مفاهيم العبودية.





لماذا شُرعت العبادات الظاهرة؟

لما كانت العبودية أصلها في القلب، وهو الذي إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، ولما كانت العبادات الظاهرة على الجوارح كالصلاة والصيام والزكاة والحج والدعاء والنذر والذكر وسائر العبادات مبنية على مقدار ما يوجد في القلب من خضوع، فكلما كان القلب أكثر خضوعاً وذلاً لله كانت العبادات الظاهرة أكثر وقعاً عند الله، بناء على ذلك يكون هذا السؤال:

ما فائدة العبادات الظاهرة مادام أن العبادة أصلها في القلب؟ وما علاقتها بالعبودية مادام أنها تتعلق بالجوارح؟ ومادام أن أثرها مرتبط بما يوجد في القلب فما الضرورة لها؟

وإثارة هذا السؤال مهمة لأنها تساعدنا في فهم العبودية، ولهذا سنتناول الأجوبة التي تتعلق بالعبودية ونتجاوز ما عداها، إذ ليس القصد استقصاء الجواب إنما الوصول لفهم العبودية.



إن هذه الشعائر الظاهرة ماهي إلا أوعيةٌ=أفعالٌ تُظهر قلوبُنا من خلاله خضوعها لله ومحبتها له، وانكسارها بين يديه، وانقيادها لأمره، واستسلامها لأحكامه، واعتمادها عليه، ورجاء ثوابه، وخوفاً من عقابه، وطمعاً في رحمته، ويقيناً بوعده، وابتغاء لوجهه، ورضاها بشرعه، ومراقبة لاطلاعه وبصره وسمعه لنا، ورغبة فيما عنده سبحانه، وتعظيماً لأوامره، واستقامة على أحكامه ودينه، وصبراً على طاعته، وشكراً لفضائله، وحياء من رؤيته، وإيثاراً لجوده على غيره، فكأننا نبرهن على خضوع قلوبنا ومحبتها لفاطرها وخوفها منه وما يتبع ذلك من عبوديات قلبية، فمن هنا كان الفهم الحقيقي للعبودية أن نجتهد في براهيننا أن تقع على ما يحبه الله، وأن نرضي الله عنا بخضوعنا له وذلنا بين يديه.

وسأحكي لك أمثلةً لتقيس غيرها عليها من العبادات:

في شريعة الصدقة والزكاة نحن نبرهن لربنا سبحانه على أن قلوبنا تحبك أكثر من حبها للمال، وهو حب فطري لا نلام عليه كثيراً إلا في حدودٍ تخالف شرع الله، ومع هذه المحبة إلا أننا نضحي به في سبيل رضا ربنا عنا، فكأننا نخاطب ربنا قائلين: إلهنا خذ من أموالنا ما تأمر به، فالمال مالك، وهو

منك وحدك، وأنت أحب في قلوبنا من مالنا، وثقتنا بما عندك أعلى من ثقتنا بأموالنا، وتوكلنا واعتمادنا في أرزاقنا عليك يجعلنا ندفع صدقاتنا وزكاتنا من غير اضطراب وخوف من فقر وجوع، ونحن ندفع الأموال؛ لأنك عندنا أعظم منها، وندفعها ونحن راضون بشرعك مستسلمون له منقادون من غير جدال ولا اعتراض.

وفي الحج نظهر لله مدى استسلامنا لأمره، وتعاليم شرعه، ومحبتنا لبيته المطهر، واقتداءنا بنبيه ﷺ، وتعظيمنا لحرماته، وبهذا نفهم قوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [السجدة: ٥].

فالله لا يناله لحوم الهدي والأضاحي، وإنما يناله ويصل إليه التقوى في قلوبنا والتي برهنا عليها بإراقة الدم طاعة له، ذاكرين اسمه تعالى، منقادين لتعاليم شرعه، فرحين بذلك من غير تعنتٍ ولا تباطؤٍ، نريق الدم فنختار أسمنها وأفضلها عند أهلها، وأغلاها ثمناً، فندفع الثمن وقلوبنا مطمئنة راضية مختارة، مستشعرين بقلوبنا إفراد الله بالذبح لوجهه الأعلى، مبتغين رضاه، فارين من غضبه علينا، هذا هو التقوى في قلوبنا وهي التي تصل لله.

وكذلك الحال في الصيام فهو برهان على مافي قلوبنا من تقديم أوامر الله علــى أهوائنا وشــهواتنا، فتنازعنا النفس طالبة شهوتها من الطعام والشراب والجماع، فترك ذلك لما في قلوبنا من الانقياد والخضوع لأوامر الله العظيم، فإذا كان هذا حالنا في الصيام، فكيــف يكون إذا تعبدنا بقــراءة كلام ربنا أثناء الصيام ورائحة أفواهنا خلوف، فإن قراءتنا شعار محبة في باطننا لكلام الله، فنظهر من إجــلال القرآن ما نفصح به عمــا في باطننا من التعظيم، فنستقبل القبلة ونستاك ونأخذ أحسن هيئة لنا، ونستعيذ من عدو ربنا وعدونا أن يحول بيننا وبين قراءتنا، ثم نذكر اسم ربنا تبركاً، ومع كل آية نرى فــي قلوبنا إلاهنا يخاطبنا، فيرغبنا تارة ويرهبنا تارة، ويشــوقنا إليه مرة، ويحذرنا عدونا أن يقطعنا عنه، ويطالع العبد ما يمر عليه من أسماء الله وصفاته مما يرسخ ذله وخضوعه بشــكل أكبر لربه ومولاه، ولهــذا اقرأ معي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢] فالعجيب في الآية الكريمة أن حالهم قبل ســماع الآيــات تغير فازدادوا إيماناً لمجرد سماع آيات تليت، والسبب من وراء التغير السريع الخضوع القلبي والذي جعل القارئ متلهفاً لسماع كلام مولاه، مطرقاً بســمعه وجميع جوارحه له، اشــتياق العبد لكلام سيده وولي نعمته وصاحب محبته.

وبهذا نعرف أن الذكر باللسان إنما هو برهان عما في القلب من التعظيم، فنحن نعبر عن تعظيمنا لله بقلوبنا بتنزيهه بألسنتنا عما لا يليق به ـ وما أكثره في الأرض ـ والحمد في أقوالنا إنما هو تعبير عما يكنه باطننا من محبة وإجلال لله، فأصبحنا نردد: الحمد لله، ومع كل ترداد للحمد تظهر لنا في مشاعرنا وقلوبنا مظاهر المنة والفضل التي امتن بها علينا، وكل قلب حامد يأتيه من مجالات الحمد في حياته غير الآخر، فحامد مستشعر لنعمة البيت والأولاد، وحامد مستشعر بقلبه نعمة المال والأعراض، وأعلاهم من استشعر نعمة الدين والشرع والقرآن والنبوة، وكذلك نعمة أن جعلك الله عبداً له، فمن استشعر ذلك عَظُمَ حمده، حتى أنه يملأ الميزان.

وأما الصلاة فهي نور، وهي برهان على كل أعمال القلب، ففي قلوبنا افتقار وذلك أظهرناه بهيئة وقوفنا، واضعين أيدينا متأدبين أمام الملك، وما في قلوبنا من التكبير لله أظهرناه بركوعنا منخفضين، وهو تلقاء وجوهنا، وما في القلوب من ذل عبرنا عنه بالسجود وترغيم الوجه له، والعبارة تقف حائرة أمام برهان الصلاة على عبودية قلوبنا لله.

ثم قس على هذه الأمثلة في كل عبادة، فكل شـريعة من شرائع الدين الواجبة والمستحبة فيها مثل هذا البرهان العبادي وأعلى منه، وكذلك الحال في منهيات الله، ففي النواهي التي نهانا الله عنها، فإن تركنا لها مـع دعوة أهوائنا هو في الحقيقة تعبيرٌ نعبرُ عن شـعورٍ من مشـاعر قلوبنـا؛ كتعظيمه وهيبته والانقياد لأوامره، وهو أيضاً برهان على تقديم محبة ربنا على محبة أهوائنا.

فأصبحت العبادات إذن تعبير عـن خضوع قلوبنا لله وذله له، ومـن هنا كان لزامـاً أن يكـون هناك تناغم بيـن القلب والجوارح أثنـاء أداء العبـادة ليزداد القلـب خضوعاً، فقلب المحب كيف يكون حاله إذا سمح له محبوبه بأن يبرهن له عن محبته؟ وقد أخذ الـمُحب يتكلم ويبين حبه له، وتناغمت اليد والصوت والعين مع مافي القلب من وجـد! ألا يزداد القلب محبة إلى محبته؟ فكذلك حال العبـد المصبوغ بالعبودية إذا أدى عبادة من العبادات يزداد خشـوعاً إلى خشـوعه كما قال تعالـى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسـراء: ١٠٩]. وهذا الخشوع الزائد هو الذي يجعل العبد على صلة بعبوديته لربه واستمرار عليها لما في قلبه من خضوع وذلٍّ.



فالعبادات إذن هي لاستمرار خضوع القلب، فمنذ استيقاظ المرء من نومه قارئاً أذكاره إلى أن ينام، قارئاً أذكاره وهو في عبادات تجعل قلبه خاضعاً.

بقي أن أقرر أن قيمة العبادة عند الله تُنبني على ما ينطوي عليه ضمير العبد من مشاعر العبودية، فكلما كان القلب ذليلاً محباً معظماً منقاداً كان شأن العمل أرفع وأعلى عند الله، ولهذا يختلف العاملون بناءً على ما انطوت عليه سرائرهم من مشاعر التعبد والذل والخضوع، «وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض»[1] بناءً على خضوع القلب وذله وتعبده، وهو ما قاله الله: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] وهذا السر في ارتباط القبول بالتقوى دون غيرها، فلم يقل الله: إنما يتقبل الله من المسلمين، لأن تقوى القلب هي عبوديته، فتقواه التي هي فعل الأوامر واجتناب النواهي تعني استسلام العبد لله، وخوفه منه بترك نواهيه، والرهبة من عقابه، ومحبته له بفعل أوامره ورجاء ثوابه، فإذا سكن ذلك في القلب واستقر فيه قُبل العلم.

---

(١) مدارج السالكين ١/٥٢٦.

وكل العبادات لا بد أن تنتج للعبد: الخضوع لله، والافتقار إليه، والذل له، والانكسار بين يديه، ولو اخترنا كلمة واحدة من الكلمات السابقة يجتمع فيها معاني الكلمات الأخرى لقلنا: الخضوع. وعلى هذا فيكون الخضوع مطلوب الاستمرار في كل لحظات العبد التي يتقلب فيها.

ولتعلم أن خضوع العبودية وذل القلب لله إذا أحسنت فهمه فإنك ستجد كل شيء يدلك على الله، فالأرض والسماء والبحار والليل والنهار والكائنات ومظاهر الكون العظيم من حولك تذكرك الخضوع؛ لأنها تشير إلى ربها وبارئها وقيومها سبحانه، ومتى وصلت لهذا الفهم والإحساس من العبادة فكل ما تسمعه من قصص وأخبار وحكايات وعبر تجد الله من خلاله أيضاً فتزداد خضوعاً لله.

فما دام أن العبادة هي المظهر الذي نعبر فيه عما في باطننا من حب وخوف ورجاء واعتماد على الله، فهل يصح أن ننشئ أنواعاً من العبادات من تلقاء أنفسنا؟ هذا ما سأبينه في العنوان الآتي.



أبواب الدخول على الله

سؤالٌ يتبادر يقول:

ما دام أن العباد خلقوا للعبادة والخضوع لله، فلماذا لا يُترك للعباد طريقة اختيار تعبدهم لله؟ والجواب: لأن العباد لا يمكن لهم معرفة الطريق الذي يوصلهم لله، ولا يمكنهم معرفة العبادة التي يحبها الله، ولو تُرك أمر العبادة للناس لتنوعت اجتهاداتهم فمنهم المتنطع الغالي، ومنهم الجافي، فاقتضت رحمة الله أن يُرسل لهم رسلاً ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ يدلون الناس على العبادة التي يحبها ربهم، واختارها لهم، كما قال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأكد أن عبودية القلب وخضوعه وذله لربه هو المقصود من خلق الله لنا، وما يتبع هذا الخضوع والذل من مشاعر المحبة والخوف والرجاء والتوكل والثقة وغيرها، وكل هذه المشاعر نظهرها لله من خلال العبادات والشرائع التي أمرنا الله بها، ونظهرها أيضاً من خلال ابتعادنا عن المنهيات، إلا أن

الله ﷻ لكمال ملكه وحكمه، وله الحكم والأمر والخلق، فقد أذن لنا بالخضوع إليه والذل له من خلال طريق شرعه لنا، لا يحق لنا أن نأتي بغيره، كما لا يحق لنا أن نتجاوزه، وهذا هو مقتضى العبودية، فله علينا الطاعة والإخبات، والطريق هي الشريعةُ التي جاءنا بها نبينا محمد ﷺ، فلا يمكن الخضوع لله من غير طريق النبي الكريم ﷺ، وكل طريق حاول العبد أن يسلكه ليس طريق النبي محمد ﷺ فلن يوصلك إلى الله، بل سيرمي بك في أهواء الشياطين، كما قال: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١]. فطريق العبودية الذي يوصل إلى الله، وقد ارتضاه الله لعباده، وأوحاه إلى نبيه ﷺ هو طريق واحد الصراط المستقيم.

وقد كان علماء السلوك يضربون لهذه القضية ـ العبادات القلبية وأفعال الجوارح ـ أمثلة من بيئة زمانهم، وسأضرب ـ اقتداءً بهم ـ أمثلة من بيئة زماننا[1]:

فلو كان لديك رغبة في دخول وظيفة معينة، فسيُطلب منك تعبئة نموذج خاص بهذه الوظيفة، ولنفترض أن عندنا ثلاثة أشخاص:

---

(١) أخذت فكرة المثال من كتاب حقيقة العبودية، مجدي الهلالي.

الأول: كتب المعلومات كاملة على ورقة النموذج.

والثاني: كتب المعلومات كاملة على ورقة خارجية.

والثالث: لم يكتب شيئاً على ورقة النموذج.

فالأول أتى بالمعلومات، وكتبها على النموذج الذي قررته جهة الوظيفة، فسيُنظر في ورقته، ويكون الأمر بعد ذلك لصاحب الصلاحية في قبوله من عدمه، وأما الثاني: فلن ينظر في ورقته، ولن يشفع له دقة معلوماته وصحتها؛ لأنه لم يكتبها على النموذج المُعدّ، والذي أُعدَّ لحكمة تناسب الوظيفة، والثالث أتى بورقة الجهة المعدة لذلك، لكنه لم يكتب فيها شيئاً فلن ينظر في ورقته، ولن يشفع له تسلميه لورقة النموذج.

فهذا مثال تقريبي لحال أفعال الجوارح مع عبودية القلب ـ ومهما يكن المثال فلن يوفي الألفاظ الشرعية حقها الكامل، لكنه التقريب وحسب ـ فكما أن القلب لابد له من خضوع وذل وإخبات وإنابة لله، فلا بد للجوارح أن تؤدي ما شرعه الله لها، وعلى هذا لو اجتهد العبد في تحصيل العبادة بهيئتها الخارجية التي فرضها الله من غير خضوع القلب وذله لله فلن تُقبل، كما قال ﷺ: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش»[1].

---

(١) رواه ابن ماجه (١٦٨٠) وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.



وبالمقابل أيضاً لو ابتدع العبد هيئة جديدة من تلقاء نفسه يريد بها التقرب لله، وأداها بخضوع وذل وخشوع، فلن يُقبل لقوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[1]، وهذا عبدٌ قدَّم حظ نفسه على الحق الواجب عليه من ربه.

واستمع للإمام ابن القيم يلخص هذا الكلام بقلمه الإيماني قائلاً: «ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح، من غير حضور ولا مراقبة، ولا إقبال على الله قليل المنفعة دنيا وأخرى، كثير المؤنة، فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود، فإنه ـ وإن كثر ـ متعبٌ غير مفيد، فهكذا العمل الخارجي القشوري بمنزلة النخالة الكثيرة المنظر القليلة الفائدة، فإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها»[2].

ومذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان قولٌ وعملٌ، ويقصدون بالقول قول القلب وقول اللسان، وبالعمل عمل القلب والجوارح، فلابدَّ من اجتماعهما، ولا يُتصور عند أهل السنة عملٌ بالقلب دون عمل الجوارح، إذ لو كان عمل القلب صحيحاً تاماً لما تخلفت الجوارح.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٩٩).

(٢) مدارج السالكين ١/٢٧١.

فأصبح عمل القلب وخضوعه وذله ومحبته لربه مهماً للعبادة، كما أن أفعال الجوارح مهمة أيضاً في تحقيق العبادة ولا بدَّ من الأمرين مجتمعين، وبعدما عرفت أنهما مهمَين فلتعرف الآن أن عمل القلب وخضوعه وذله وإنابته أكثر أهمية من عمل الجوارح، وهذه المعلومة تفيدنا في وجوب الاجتهاد في تحقيق عمل القلب، فليجتهد العبد في معرفة الخضوع والذل والمحبة والرجاء والخوف والإنابة والتوكل واليقين والثقة بالله تبارك وتعالى، فهذه الأمور وغيرها هي المحرك لأعمال الجوارح، وعلى هذا فمن الخلل أن نجتهد في أعمال الجوارح من غير التفات لأعمال القلب، فالإكثار من الركعات والختمات والصدقات لن ينفع مالم يكن معه تذلل واستسلام وخضوع لله.

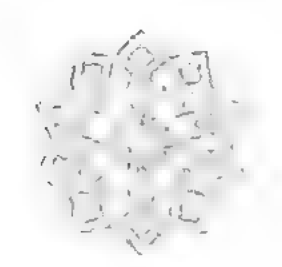
ولكون الإتيان بعمل الجوارح أسهل من الإتيان بخضوع القلب وأعماله فإننا نجد أن يسهل على النفس أن تأتي بالكثير من الذكر من غير شعور القلب بالخضوع والذل والانقياد لله، لكنه يصعب عليها أن تأتي ببعض الذكر مع كثير من خضوع القلب وذله ومحبته لربه، فإن سألت عن سر ذلك؟ فالجواب أمران:

١ ـ أن الظاهر يسهل رؤيته والتحكم به قلةً وكثرة، فالعبد يرى حركات جوارحه، ويسمع ترنمات ذكره، وصوت تلاوته، وانحناء جبهته، وغير ذلك، لكنه لا يرى سجود قلبه وخضوعه وذله، ولا يرى خشوعه ومحبته، فهو يكثر مما يراه ويجهل ما لا يراه.

٢ ـ الشيطان يبصر قلب العبد المؤمن، ويدخل فيه أحياناً، والشيطان يعلم أن خضوع القلب وانقياده لربه هو طريق العبودية، وهو الفهم الصحيح لها، وهو الخطوة الأولى للسير إلى الله، فهو يجتهد في صدِّ العبد عن ذلك بخيله ورجله، ويخلي بينه وبين كثرة أعمال الجوارح ليرضي العبد بها نفسه، فإن النفس ـ كما ذكرت سابقاً ـ إن عجزت عن شيء عوضت نقصها في أمرٍ آخر، فتجد هذا العبد فُتح عليه في كثير من الأعمال مع إهمال عبودية القلب وخضوعه وذله وافتقاره لله، ولو كان هذا العبد فقيهاً في العبودية لبذل أكبر جهدٍ في تحقيق عبودية القلب، ومعرفة الخضوع والذلّ والافتقار لله، فإن فعل ذلك فإنه ينفعه أقل مما كان يبذله سابقاً من ذكرٍ لله، لأن تسبيحاً قليلاً مع خضوع القلب وافتقاره يبلغ بالعبد أعلى وأرفع مما يبلغه مليارات التسبيحات مع عدم

خضوع القلب وذله لله، واحذر أخي أن يصدك كلامي هذا عن الذكر والاجتهاد في العبودية، فهذا من وحي إبليس، وما أسوأ وحيه، إنما كتبتُ ذلك لتجتهد في فهم العبودية والخضوع لله والافتقار إليه.





أنت محاطٌ بالعبودية حتى في ابتلاءاتك

لم يخلق الله الخلق إلا للعبودية، وتبين لنا كيف أن كل شيء فيك أيها الإنسان مهيأ لأن تعبد الله، وتخضع له، وظهر لنا أيضاً أن الشعائر إنما شُرعت لأجل التعبد والعبودية والخضوع لله سبحانه، والآن أزيدك بياناً بأن الحكمة من الابتلاءات هي أن يقودك الله للعبودية؛ لأن الله يحب العبودية منك؛ لأن عائدها إليك وحدك، فيصيبك بالمكروه والأذى لأجل أن يستخرج منك الضراعة والدعاء والإلتجاء والافتقار والذل والانكسار والفاقة إليه سبحانه، يصيبك بما تكره ليستخرج منك ما يحبه لك، فهو رحيم بك حتى في ابتلائه لك، واسمع قول الله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] فأظهر الله لنا الحكمة التي لأجلها أصابهم بالشدة والجوع والفقر والأمراض لعلهم يستكينون ويتذللون[١].

واستحقوا اللوم؛ لأنهم لم يستوعبوا الحكمة من البأساء فقال: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقوله:

(١) تفسير الطبري ٩/٢٤٢.

﴿ فَلَوۡلَآ ﴾ أي فهلا، وفيها إشارة إلى قرب رحمة الله لهم لو كانوا يعقلون، وبيَّن سبحانه حكمة العذاب الدنيوي بالأمراض والجوائح والابتلاءات بقوله: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦] والاستكانة هنا بمعنى الخضوع والانقياد، مما يدل على أن الخاضع بعيد عن العذاب بأمان الله له.

وهذا الابتلاء يشمل كل ما يؤذي المؤمن، فالمرض يصيبه ليذكره أجله، ولينكسر بعض غفلته، وليراجع حاله وشانه، والجوع يصيبه ليستخرج من العبد عفته وصبره ورضاه، والموت يصيب أحبابه ليستخرج منه الحمد لله على حال البلاء، وحتى على مستوى المجتمعات التي يصيبها بلاء عامٌ بذنوبهم، فالله يرجع تلك المجتمعات لمرتبة العبودية بعد أن غفلوا عنها، فيرجوا الله وينيبوا إليه، ولا يفهم من هذا الكلام أن نرضى في مجتمعاتنا بالأوضاع المؤذية، لكننا نحاول أن نفهم حكمة الله في إذنه بذلك، وألا نكون كمن قال الله فيهم: ﴿ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٦]، ولنفرق في نظرتنا للابتلاء بين الحكمة والسبب.

فالابتلاء دعوة من الله للخضوع والذل، والرجوع إلى شرف العبودية له، وعدم التكبر والاستكبار أو نسيان الله، كما يشمل أيضاً تسليط الأعداء على المؤمن، فالله يسلط أعداءه على أوليائه ليستخرج من أوليائه عبوديات يرجع خيرها عليهم، فمشاهدة العبد المؤمن لأعداء الله وما هم فيه من الخذلان، وقلة التوفيق، والمحاربة لله، والجرأة على حرمات الله، ومكر الله بهم = فمشاهدة ذلك بقلب المؤمن = تورثه اليقين بربه، ومحبته، والاعتماد عليه، «وزادوا له خضوعاً وذلاً، وافتقاراً وانكساراً، وبه استعانةً وإليه إنابةً، وعليه توكلاً، وفيه رغبةً، ومنه رهبةً، وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لا يعيذهم من بأسه إلا هو، ولا ينجيهم من سخطهم إلا مرضاته، فالفضل بيده أولا وآخراً»[1]. وواحدة من هذه العبوديات القلبية ترفع العبد عند ربه منازل؛ لأنه صار فقهياً وعبداً منيباً.

فظهر رحمة الله بك أيها العبد المسكين حتى في الأذى الذي أصابك أن الله يريدك أن ترجع إلى منزلتك التي لا يليق بك غيرها وهي العبودية لله والخضوع له.

---

(١) مدارج السالكين ٤١١/١.

ومن رأى كثرة الملهيــات والمغريات، وتتابع غفلة العبد عن أصل غاية وجوده، وكثرة مشــاريع الشياطين التي تجتال الناس عن العبودية أدرك أنه لابد من الابتلاء ليقظة القلوب، هذا كله حال المؤمن التقي العابد، فيا تُرى ما حال المعرض عن العبودية؟ الغافل عنها؟ كيف تكون نظرته للابتلاءات؟

من لم يفهم منزلة العبوديــة، ولم يعي هدف الخضوع لله فإن الابتلاء يضله ويزيده بعداً عــن الخضوع لله، وينتقل من مقام العبد الخاضع إلى مقام الند المعارض لربه، الذي يلوم إلهه وسيده، ولا يزال هذا حاله حتى يُفتن في ضرائه كما فُتن في سرائه.

وأرجعك أخي القارئ إلى ســيرة النبي ﷺ كيف تتابعت عليه الابتــلاءات، فناجزهــا بالخضوع والذل والاستســلام وتعليق الرجاء بربه وحده.

وأظني ســأخبرك بأمر بعد أن تهيأت له نفســياً: إن كل الحياة ابتلاء، فالله يبتلي عبــده بالنعمة كما يبتليه بالمصيبة، ويبتليه بالنصر كما يبتليه بالهزيمة، والتوفيق أيضاً ابتلاءٌ كما أن الخذلان ابتلاءٌ، فأصبــح كل ما يقــدره الله لك إنما هو لأجل أن يبقيك في مرتبة العبودية إما حامداً ـ إن كان خيراً ـ

وإما صابراً راضياً إن كان غير ذلك، وأنت في ذلك شأنك شأن العبد مع سيده الذي يقلبه على كل أحواله، ودليل كلامي هو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فأنت أيها العبد محاطٌ بما يقودك للعبودية والخضوع لله من كل جهة، في أصل خلقك، وفي هيئتك، وفي أقدارك، لأنه لا يليق بك إلا التعبد والتذلل له وحده دون غيره، وبالمقابل لا يزال عدوك ـ الشيطان الرجيم ـ يلقي في روعك التفلت على الخضوع لله والذل والتعبد له، اقتداء به، ولا يزال الله يردك إلى منزلتك اللائقة بك من العبودية.

وأظنك القارئ الكريم مرَّ عليك في كلامي كثيراً كلمة (الخضوع) و(الذل) وهما كلمتان مهمتان في فهم العبودية، فليكن ذلك منك على بالٍ، ولعله دار في ذهنك محبة التعرف على معناهما، وكيف يطبقان عملياً، فأبشر به في العنوان التالي.



هل تحسن فهم الخضوع؟!

تُعرَّف العبادة بأنها: كمال المحبة مع كمال الذل والخضوع، فجمعت العبودية ركنين:

١ ـ المحبة: وسأترك الكلام عليها، إذ ليس من مقصودي في هذا الكتاب.

٢ ـ الخضوع: وسأثير فيه عدة أسئلة:

ما هو الخضوع؟ وكيف يكون الأمر خضوعاً؟ وهل يمكن أن يكون المؤمن خاضعاً في غير صلاته؟ وكيف يكون خاضعاً وهو يمارس حياته العملية والأسرية وغيرها؟

الخضوع والذل كلمتان يذكرهما أهل العلم في تعريف العبادة كثيراً، وتُغني إحداهما عن الأخرى، إلا أنها زيادة للتوضيح، فقد لا يستوعب معنى الخضوع بشكل كامل فيضاف لها الذل، وقد يفهم بأن الخضوع للبدن فيضاف الذل ليشمل القلب، «كما أن الخضوع هو التطامن وقد لا يكون

معه خوفٌ، والذل الانقياد كرهاً»[١]، وسأقصر البيان على كلمة الخضوع لكي نفهم العبودية والعبادة.

الخضوع والذل عكس الكبر والاستكبار، والخضوع انخفاضٌ، وأخص صفات العبد أن يكون خاضعاً لسيده، فلو افترضنا أن سيداً فيه صفات القوة والجود والعلم والحكمة والغنى والقدرة وغيرها من صفات الكمال، وأراد أن يأخذ عبداً له، فإن الصفة التي يطلب تحققها في ذلك العبد هي: أن يكون خاضعاً له، السيد لكمال قوته لن يطلب شجاعة العبد لأن في السيد من القوة ما يُغني عن قوة عبده، ولن يطلب غنى عبده؛ لأن ما عند السيد من الغنى يفوق ما عند العبد مرات وكرات، وهكذا بقية الصفات، فما من صفة في العبد إلا وعند السيد أضعافها، إن الصفة التي يبتغيها السيد ليحقق سيادته هي خضوع عبده له، وهنا نتساءل لم كانت هذه الصفة ـ الخضوع ـ دون غيرها؟ لأن هذه الصفة هي المحرك لكل أعمال العبد التي يطلبها منه سيده، فخدمته لسيده ستكون على قدر خضوعه له، فعرفنا عمق علم هذا السيد حينما اختار لعبده التحلي بهذه الصفة.

---

(١) الفروق للعسكري١/٢٤٨.

وهناك أمثلة أخرى يذكرها ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ليجلي لنا صورة الخضوع، فيقول: «كل من علَّق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه، أو أن يهدوه؛ خَضَعَ قلبه لهم؛ وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك؛ وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لهم متصرفاً بهم، والرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيراً لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد؛ وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها لا سيما إذا درت بفقره إليها، وعشقه لها؛ وأنه لا يعتاض عنها بغيرها؛ فإنها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور؛ الذي لا يستطيع الخلاص منه بل أعظم»[1].

فعلى هذا فالخضوع لا يكون إلا لمن استولى عليك وقهرك بقوته وعظمته، فمن كان كذلك فأنت تخضع له، وبالتالي تطيعه باختيارك أو كرُهاً.

أرأيتم ـ في زماننا المعاصر ـ خضوع الشخص لنظام الدولة التي يعيش فيها، وإحساسه بأنهم قادرون عليه، وهذا

---

(١) الفتاوى الكبرى ١٣٨/٥.

الشعور لا يفارقه أينما ذهب، فسيجد ما يذكره بالنظام والقانون، فهو يمارس حياته تحت استشعاره ذلك، فهذا مثال لتقريب الخضوع، وإلا فإن الخضوع لله خضوع تدين.

فالخضوع سكون لمن أمامك ليفعل بك ما يريد! ولأجل ذلك كان الخلق كلهم خاضعون لله؛ لأنهم في ملكه، ويتصرف فيهم بمشيئته واختياره، فمَنْ مِنْ الناس لا يخضع للموت؟! ومَن لا يخضع للمرض؟! ومن لا يخضع للمصائب؟! ومن لا يخضع للجوع؟! فكل المخلوقات خاضعة لله من هذه الناحية، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد: ١٥].

والخضوع درجات وأعلاه أن تنحني لمن أمامك، وأعلى منه أن تسجد له وتمرغ وجهك بالتراب بين يديه، اعترافاً منك بالذل له والإذعان، ومن هنا نرى بعض العلماء يفسرون الخضوع بأنه: السجود، لأن السجود هو أظهر صورة نعبر فيها عن الخضوع لله سبحانه. وبعضهم يجعل الخضوع هو التواضع لله، ويقصدون بذلك عدم التكبر على أوامره شأن العبد أمام أوامر سيده. وآخرون يجعلون الخضوع: انخفاض، وهو كذلك فالقلب الخاضع منخفض، وهذا تعبير عن



الخضوع بأمر محسوس كما قال تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] فتنكيس الرقبة يسمى خضوعاً، ولا يكون هذا إلا بعد خضوع القلب وذله.

كما أن لكل شيء خضوع يناسبه، فخضوع الأرض يبسها وانعدام نباتها، لأنها إذا أنبتت ربت وزادت، وفي الكلام خضوع يناسبه كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أي: فلا تَلِنَّ بالقول للرجال[1]، فسمى لين القول خضوعاً.

وخضوع القلب بالعبودية لله: هو شعوره وإحساسه بأنه في قبضة الله وملكه، وتحت سلطانه وتصرفه، فهذا الشعور يصاحب العبد في كل تقلباته وأحواله ويومه وليلته، كشعور العبد عند سيدٍ قوي عظيم متولٍ أمر نعمته، فهو يشعر بأنه تحت سلطان هذا السيد، وهذا الشعور لا يفارقه حتى في ضحكه وبكائه، أو نومه ويقظته، أو في بيته ووظيفته، إن هذا الشعور لا يمنع العبد من ممارسة حياته، بل سيتبين لنا أنه هو المحرك للحياة، وعلى قدره تكون حركة الحياة وجديتها.

---

(١) تفسير الطبري ٩٤/١٩.

هذا الخضوع إذا سكن في القلب واستقر فيه، ودام استشعاره فهو بوابة أعمال أخرى كبرى، منها:

التصديق: فمَن خضع قلبه لله وأقر له بالعبودية والذل فسيصدق أخباره وأقواله وكلامه وقصصه، ويصدق بربوبيته وألوهيته وما يتبع ذلك.

التسليم: فمن خضع واستشعر أنه تحت سلطان الله، وأنه عبدٌ له، وتحت تصرفه فسيستلم له، لأوامره ونواهيه، ويصدق بأخباره.

الانقياد والإذعان: فالعبد الخاضع بقلبه المستشعر عظمة سيده، وذله له، سينقاد له ولدينه وشرعه، وتحليله وتحريمه وحكمه، وغير ذلك من لوازم الخضوع الكامل.

الإلتزام والعزم: فالعبد الخاضع لربه، المتذلل لسلطانه ملتزم بشريعة مَن خضع له، عاقد العزم على التنفيذ والطاعة قدر استطاعته، ومن هنا ندرك عبودية السابقين أول الإسلام، الذين امتلأت قلوبهم خضوعاً لله، عازمين على اتباع الشرع مهما كلفهم ذلك، فهذا هو ضمان كونهم عبيداً قد أقروا بالعبودية لله.



فانظر كم جرَّ الخضوع من أعمال هي عبودية للقلب، كان الخضوع بوابتها المشرفة، والذل يصاحب الخضوع.

وإذا فهمنا ذلك عرفنا أن خضوع الربوبية لوحده لا يكفي، كما حال المشركين الذين يقرون بالخضوع لله لأنهم خلقهم ورزقهم، لكنهم لا يلتزمون دينه وأوامره ونواهيه، وكذلك خضوع الكربات والشدائد لا يكفي، كما هو حالهم إذا ركبوا في الفلك، ومرت بهم الشدائد، فلا بد من خضوع كامل من ورائه استسلامٌ وانقيادٌ وإذعانٌ والتزامٌ وعزمٌ، وغير ذلك من حقوق الألوهية.

ومن الضروري أن نعلم ارتباط الخضوع بعلم العبد بصفات الله، فكلما ازداد وعياً لها، وعلماً بها، واستشعاراً لها زاد شعور الإحساس بأنه عبد حقيقي خاضع ذليل لملك عظيم؛ لأن الخضوع لابد فيه من استشعار عظمة الله، فإن فعل ذلك ازدادت مشاعر ذله كثيراً، فقوي اعتماده على ربه، وتوكله على سيده، والتجاؤه لمولاه، وأكثر من سؤاله ودعائه والإنابة والرجوع إليه، فما أكثر بركة الخضوع على العبد، وما أسهل ما يطلبه الله من عبده، ومع هذا فالله يعين العبد على مطلوبه كما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وأيضاً فاستشعار الخضوع يختلف من عبادة إلى أخرى، فبعض العبادات يكون استشعار الخضوع فيها أكثر من غيرها كالصلاة مثلاً، وبالذات عند الركوع، وأشد منه عند السجود وتعفير الوجه، ومن العبادات التي يزيد فيها الخضوع عبادة الذبح مع ذكر اسم الله فإن القلب يخضع لإلهه العظيم فيتقرب إليه بإزهاق بهيمة الأنعام تطبيقاً لأمره، ولهذا جمع الله بين هاتين العبادتين كما قال: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢].

أرأيت أن الخضوع أمر تستطيع ممارسته أثناء حياتك، إنه لا يستدعي انعزالاً، أو انخفاضاً في الرقبة وتباطؤً في المشي، ولا يمنع ضحكاً ولا متعةً حلالاً، ولا يتعارض مع أمور الحياة المعيشية، لكنه يتعارض جداً مع الاستكبار والتكبر على الله، ولهذا اشتد عقاب الله على رجل أعجبه برداه، فخسف الله به فهو يتجلل في نار جهنم[١]، لأنه بالكبر خالف خضوع العبد، إذ العبد ليس من شأنه وحاله الاستعلاء، فاشتد غضب الله عليه؛ لأنه خالف خضوع العبودية الذي خلقه لأجلها.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٨٨).

هذا ما يتعلـق بجانب الخضوع والذل، وأحسـب أنه قد انفتح لك باب من فهم العبودية، ولتجعل الازدياد من تصوره وفهمه واستشعاره مشروع حياتك.

والآن هـل إذا خضع القلـب وأذعـن لله يكون عبـداً له؟ والجواب: لا، لأنه ليس كل خضوع عبوديـة، فقد تخضع وتذل وتنقاد لمن تكرهه، بحكم قوته وسيطرته عليك، ولهذا احتاجت العبودية الكاملة إلى ركن آخر مع الذل والخضوع، وهو (المحبة).

فلا بد أن يجتمع في قلبك لله (خضوع وذل) مع (محبة) حينئذٍ تكن عبداً له، ولتتأمل حال العبد مع سيده وولي نعمته، فإن خضع له من غير محبة، فلن تكـون خدمته له كاملة، بل ستكون الخدمة على قـدر الخوف فقط، فـلا يتلذذ بخدمة سيده، ولا يشـعر بالمنة لسـيده، فإذا اجتمع الخضوع والذل والمحبة فقد أفلح العبد؛ لأنه عاش خدمته تلذذاً من غير مللٍ ولا استكثار ولله المثل الأعلى، فكان من الضروري أن يمتلئ القلب بمحبة الله مع الخضوع له؛ ليكون لـه صبغة العبودية التي هي صبغة الله يصبغها لمن أراد.

وكمـا أن الخضوع بلا محبـة لا يكون عبـادة، فكذلك المحبة بلا خضوع لا تكن هي الأخرى عبادة، ولنرجع لمثال

العبد مع سيده، فإذا امتلأ قلب العبد محبة لسيده بلا خضوع وذلٍ لــه، فلا تســأل عن الجسـارة عليه، وعــدم الجدية في الخدمة، قال ابن تيميــة: «ومَن خَضَعَ لإنســانٍ مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شــيئًا ولم يخضــع له لم يكن عابداً له، كما قد يحب ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شــيء، وأن يكــون الله أعظم عنــده من كل شــيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله»[1].

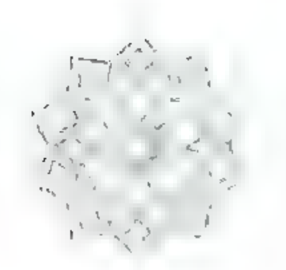
ومَن يســتحق المحبة إن لم يُحبْ الله ﷻ؟ وأي شــيء أولى منــه ســبحانه بالمحبة؟! ولــو جمعنا الأســباب التي تســتدعي المحبة في الأرض كلها لوجدناها تجتمع في الله، فمَن كان يحب الجمال فــالله جميل وله الجمــال كله، ومنه الجمال، وكل جمالٍ أخاذٍ في الدنيا وملكوتها إنما هو من آثار اسم الله الجميل، فالجميل يهب الجمال، ومن كان يحب للقوة فالله هو القــوي ذو العــزة، ومَن كان يحب للنفــع فالله عنده خزائن السموات والأرض، واسرد ما تشاء من الأسباب ستجد أنها مــن الله لأنــه الأول وليس قبله شــيء، فهو المســتحق للمحبة، وبقي أمرٌ تفرد الله به سبحانه من أسباب المحبة، إذ

(١) الفتاوى الكبرى ١٥٨/٥.

كل ما عــدا الله تحبه وهو مســتفيدٌ من محبتك لــه، ولو لم يبادلك شعور الحب، لكنه مســتفيد الإحساس بأنه محبوب وهذا من ســلطان النفس فإنها تُحِــبُ أن تُحَب، ويخضع لها محبةً، لكــن الله جلَّ جلالــه يُحب وهو غني عــن محبتك، ولا يرجع إليه نفعٌ مــن محبتك له، وزيــادة على ذلك فنفع محبتــك كله راجعٌ لك، لأنــه الغني الحميــد، وهو صاحب الفضل والنعم، أليس هذا أولى بالمحبة؟!.

وكما قلنا بالخضوع أنه على قدر معرفتك بربك وصفاته يكــون خضوعك له، فكذلك الشــأن في المحبــة فعلى قدر معرفتك بصفات جــوده وكرمه وإحســانه وألوهيته وربوبيته تزداد محبتك له، ومن هنا كان الأنبياء عليهم السلام هم أعبد الناس لله لكونهم أعلم الناس بالله وأسمائه وصفاته. فليكن أيضاً مشروع محبة الله مشروع حياتك، فهو يستحق.

واحذر من تلبيس الشــيطان عليك بالاكتفــاء بالخضوع القلبي دون عمل الجــوارح ـ كما يقوله أهــل الإرجاء ـ فإن للشيطان في الكلام لــمّة يحاول من خلالها زرع بذور تشكيك وزعزعة، ولا عــلاج لهذه الخواطــر إلا قواعد راســخة من المحكمات، منها: أن الإيمان قولٌ وعملٌ.



الطمأنينة على قدر العبودية



بعد أن اتضح لك جزءٌ من تصور مفهوم العبودية والخضوع لله والذل له، سيتضح لك وصف الطمأنينة التي وصف الله بها نفس عبده فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۞ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨] ولدينا هنا أكثر من سؤال:

كيف استطاعت النفس الأمارة أن تكون مطمئنةً؟ وما معنى الاطمئنان؟ هل هو أن يعيش المرء بدون منغصات عيش؟ ولم ناداها الله عند موتها بالطمأنينة؟ وبعد الإجابة على هذه الأسئلة سيتضح لنا الجواب على تقديم رضا النفس المطمئنة على الرضا عنها؟

إن العبد مع سيده لا يريد أكثر من أن يكون مطمئناً، لا ينغصه شيءٌ؛ ليقوم بواجباته، وليؤدي وظيفته، ويمارس حياته. ولأهمية الطمأنينة في حياة العبد المؤمن أغلق الله على عبده كل باب يأتيه منه تنغيص، فلما علم الله وهو العليم بأن الرزق سيشغل العبد الفقير كثيرًا = كان أول شيءٍ كُفل للعبد

رزقه كما قال النبي ﷺ: «يبعث الله الملك فيؤذن بأربع كلمات فيُكتب رزقه»[1]. ولما كانت حاجاته تشــغل باله فتح له باب دعائه والدخول عليه في أي وقت، وخصص أوقاتاً أرجى من غيرها، وجعل في الليل ســاعة لا يوافقها عبــدٌ يدعو الله إلا اســتجيب له[2]، وفي الجمعة كذلك[3]، ومن تأمل أسماء الله وصفاته أدرك أن كل اســم وصفة يســد منغضاً من منغصات العبودية والخضــوع لله عند العبد، فالغني مثلاً يســد تنغيص الفقر والخوف منه، وفقر المستقبل، ومستقبل الأولاد، وغير ذلك مما يشغل باب العبد المســكين، واسم الله الوكيل يسد تنغيص الحيرة والتردد، واســم الله المقيت يسد تنغيص لقمة العيش والسعي وراءها، وهكذا كل أسماء الله، ولا تحسب أن هذه وظيفة الأسماء الحســنى فقط، إنما أردت أن أخدم فهم حقيقة العبودية من جهة الأســماء والصفات، وإلا «فإن باب أسماء الله وصفاته عليها مدار التوحيد»[4].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٥٤).

(٢) رواه مسلم (٧٥٧).

(٣) رواه مسلم (٨٥٢).

(٤) مدارج السالكين ٢/٤٠٢.

فمن لبس ثــوب العبودية والتذلــل لله والخضوع له فقد اطمأن قلبه، وهدأ باله، وسكنت نفسه، ومن انتقص من ذلك اختلت حياته ولا بد على قدر انتقاصه مــن مقامه اللائق به، ولو ملك ما مَلَك من وسائل إذ ليس العبرة بالظاهر والشكل كما سبق، إنما بمشــاعر ذلك القلب وشعوره وإحساسه، وهو المتحكم في الظاهر وليس العكس.

والعابــد الفقيه فــي عبوديتــه وخضوعــه لله جعل كل ما يخيف الناس من حوله = جعله لله، فصرف شــعور خوفه من الله وحده، وما دام أن خوفه من الله فهو إذن لا يخاف إلا ذنبه، إذ لن يأتيه بلاء إلا من جهــة الذنوب، أما ما عدا ذلك فلا، وللتأكــد من هذا الطــرح انظر إلى الذيــن يخافون من المســتقبل المجهول، أو الخوف علــى أولادهم من بعدهم حتى وصل بهم الأمر ـ بعد تســلط الشــيطان على مشــاعر خوفهم ـ أن يخافوا من لاشيء إلا لمجرد الخوف، ولا تظنن أن حيازة المــال تذهب بهذا الخوف، فلــو كان له قنطار لن يُذهب الخوف، لأن الخوف شــعور وُضع فــي غير موضعه اللائق به، أما من فهم العبودية والخضوع لله والاستسلام له، فلا يخاف إلا ذنوبه التي ســيقدم عليهــا، أو صالحاته التي

لا يثق بها، أما ما عدا ذلك فهو في حصن آمان؛ لأنه تحت سلطان الله العظيم، المدبر لكل شيء على ما يريد. وفي زماننا المعاصر نلاحظ أن المخيفات للعباد تزداد، وكلها تتخطف قلوب العباد؛ لتذهب بها بعيداً عن الخضوع والذل لله.

وطمأنينة صاحب العبودية لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وأول ما يتبادر لقارئ الآية أن يعرف شروط الولي؟! فتجيبه الآية التالية مباشرة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣] فهذا الذي ضُمن له الأمن والفرح من حقق الإيمان والتقوى بأن كان خاضعاً لله منقاداً مستسلماً، وصيغة المضارع ﴿يَتَّقُونَ﴾ لضمان استمراره على حضور عبودية التقوى في قلبه وخضوعه لله، فإن التقوى قرينة الخضوع وثمرته.

والعبد إذا خضع لله سبحانه وأيقن به وبتدبيره وتصريفه، ورضي بوكالته وكفالته، من أين يأتيه الخوف والقلق والجزع والتسخط؟! أرأيتم كيف أن العبودية أمان وطمأنينة.

إذا فهمت ما سبق فاعلم أن أهل العلم يريدون منك أكثر من ذلك بأن تجعل العبودية والذل لله والخضوع له ومحبته

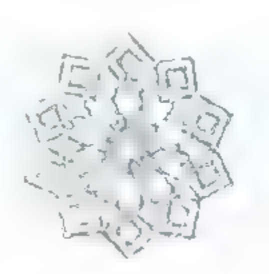
والتعلق به ورجائه = هو جنة الدنيا التـي مَن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب والخوف والرجاء، والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قوة عين المحبين، وحياة العارفين»[١]. وكرر قوله: «هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم». وقال ابن تيمية: «من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية»[٢].

ولماذا نستغرب هذا الشعور والعابد الخاضع في كنف ملك الأرض والسموات والعرش العظيم؟!. ولكل مؤمن نصيب من هذه الطمأنينة ولا بدَّ، قد ذاق طعمها وأنس بها، لكن سرعان ما تزيلها الغفلة عنَّا، فليس العجب ممن أنكرها لكن العجب ممن ذاقها وصبر عن الابتعاد عنها، اللهم غفرانك.

---

(١) الوابل الصيب، ص٤٩.

(٢) مدارج السالكين ٤٢٩/١.



أثر فهم العبودية والتعبُّد على فقه الخطايا والذنوب

إذا منَّ الله على عبدٍ بفهم حقيقة العبودية، وكيفية التعبُّد والتذلل له، والانكسار له في حياته، فإن كل شيءٍ لديه سيتغير ومن ذلك: فقه الخطايا والذنوب، ولتدرك صحة الأمر انظر إلى حالك حينما تقول: «اللهم اغفر لي ذنوبي» «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً» وفي قرارة نفسك لا تعلم ذنوباً لك من الكبائر، وكثير من الصغائر تتبعها بالاستغفار، فكلما تذكر في دعائك ظلمك لنفسك لابدَّ أن تجد بروداً من النفس في التفاعل مع هذه الكلمة ـ ظلمت نفسي ـ حتى صار من الأسئلة التي تطرح: إذا كان الوضوء يكفر الخطايا، والصلوات الخمس كفارات، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفارات، والعمرة إلى العمرة، والحج يَجُب ما قبله، وعاشوراء يكفر سنة قبله، وعرفة تكفر سنتين، فماذا بقي من خطايانا؟!

إن برود هذا الشعور ناتج لعدم فهم العبودية والتعبُّد والخضوع لله، وإلا فإن الله خلقنا لعبادته والتذلل له، ومحبته

والخضوع له، فلو افترضنا أن هناك مـن أمضى كل لحظات عمره دقيقها وجليلها في التذلل لله والخضوع له ظاهراً وباطناً لم يوفِ الله حقه ومستحقه لعظم حقّ الله عليه، فإن كان الابن لن يوفي والده حقه فكيف بالرب سبحانه؟! هذا مع افتراض التعبُّد المطلق لله، المسـتغرق للحظات العُمر، فكيف وأكثر العُمـر في غفلـة وجهل وظلـم وغضب وإعـراض ولهو؟! وما أُدي من الطاعات ـ إن أدى ـ ففيه الخلل والسهو وغياب أعمال القلوب. فكل لحظة أو أقل منها كطرفة عين تمضي لم نمارس فيها التعبُّـد لله فنحن ظالمـون، وكل طاعة لم نوفها حقها الكامل فنحن ظالمون، وكل مخالفة ـ في ظاهرنا وباطننا ـ لأوامر الله فنحن ظالمون، وما فاتنا من حق الله ونحن قادرون عليه ولـم نأتِ به فنحن ظالمون، واسـتصغار السـيئات في عينك ظلمٌ، واسـتعظام الطاعات في عينك ظلمٌ أيضاً، ومدار ذلك على فهمـك لمنزلتك التي خلقت لهـا، فمتى ما فاتك منها فهذا ظلمٌ وتقصيرٌ وجهلٌ، فـكان المؤمن على الحقيقة بحاجةٍ إلى مكفراتٍ كثيرةٍ لذنوبه، لا أن يسـأل: ماذا بقي من ذنوبي؟! فهذا السؤال ذنبٌ؛ لأنه تزكية لنفسه.

وإني اعجـب كل العجب كلما أقرأ الدعـاء الذي اختاره النبـي ﷺ لأفضل الأمة بعـده ـ أبي بكـر رضي الله عنه ـ «اللهم إني

ظلمت نفسي ظلماً كبيراً، ولا يغفر الذنوب الا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني؛ إنك أنت الغفور الرحيم»[١].

واتســاءل: ماهو الظلم المراد هنا؟ وكيف يكون أبو بكر ظلمَ نفسه؟! وكيف صار ظلمه ظلماً كثيراً كبيراً؟!.

«ومن عــرف الله وحقــه وما ينبغي لعظمته مــن العبودية تلاشــت حســناته عنده، وصغرت جداً في عينه، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه، وأن الذي يليق بعزته، ويصلح له من العبودية أمر آخر»[٢].

كما أن فهم العبودية له أثرٌ على فقه الخطايا من وجه آخر، فإن ما يفعله العبد من ذنبٍ وخطيئةٍ ومعصيةٍ إنْ صاحبه شعور الندم والانكســار، وتعظيم شــأن المعصية في القلب، وعدم التهاون بها فما أســرع مغفــرة الله لمن هذه حالــه، فإن تاب وأناب واســتغفر رفعه الله فوق حالته قبل الذنب؛ لأنه تصرف بناءً على عبوديته، واستشعر شــعور العبد، ولبس ثوب الذلِّ والخضوع، فكان الله غفوراً رحيماً.

---

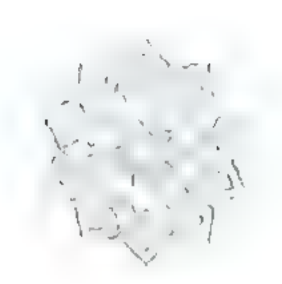
(١) رواه مسلم (٢٧٠٥).

(٢) مدارج السالكين ٢٧٦/١.

بينما إن نظر العبد لطاعاته بعين الاستكثار والإعجاب فما أشـد مقت الله وغضبه لمن هذه حاله، لأنـه خرج عن طريق العبودية والذلِّ التي خُلق لها وتناسـب حالـه، وأراد تناوش شيءٍ من خصائص السيد وهو الكبر والعظمة؛ فاشتد مقت الله له.

فانظر إلى فضـل فهم العبوديـة أن جعلـك تفقه حقيقة الذنوب، وميزانهـا عند الله، فإذا سـألت الله مغفـرة ذنوبك وظلمك أصبحت مقتنعاً بهذه الحقيقة التي تناسـب حالك ـ وهي ظلمك وجهلك ـ فسـاعد نفسـك، وانهض بهمتك في زيادة فهمك للعبوديـة والتذلُّل والخضـوع لله وحده بعد أن اتضح لك شيءٌ من ذلك.





التمرد على العبودية[1]

فكِّر معي أخي القارئ في هذه الأحاديث:

ـ قوله ﷺ: «بينما رجل يمشي قد أعجبته جمته وبرداه، إذ خسف به الأرض، فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة»[2].

ألا تعجب أخي القارئ من النسبة والتناسب بين ذنب هذا العبد وبين عقوبته، أظنك ترى أن الذنب أقل شأناً من هذه العقوبة الخطيرة القوية المرعبة، فذنبه إعجابٌ بلباسه، وعقوبته خُسف به فهو ينزل إلى يوم القيامة!

بعد بيان معنى العبودية ندرك جريمة هذا الرجل، إنه أراد أن يتمرد على منزلة العبد التي خُلق لأجلها! أراد أن يرفع نفسه فوق العباد، رأى هذا الرجل الناس أقل منه شأناً، أراد أن يلبس ثوباً ليس من لباس العبيد وهو ثوب الاستعلاء والكبر،

---

(١) حقيقة العبودية، مجدي الهلالي.

(٢) رواه مسلم (٢٠٨٨).

فهذا مختصٌ بالله كما قال: «العــز إزاره والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبتــه»[١]. فافهم الآن جريمة هــذا الرجل أنه ذهب لشيء من خصائص الملك حقاً وأراد أن يلبسها!.

وهناك حديث آخر حــاول أن تفهمه علــى ضوء فهمك للعبودية وهو:

ـ قال النبي ﷺ: «أن رجلا قــال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: مَن ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟! فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك».

فالرجل حلف أن الله لا يغفر لفلان من شــدة تقصيره في جنب الله، فحلف بناء على ظنٍ وقرينةٍ، ومع هذا حبط وبطل كل عمله! لو أردنا أن نعمل بمقتضى النســبة والتناسب بين الذنب والعقوبة لوجدنا الفارق بينهما كبيراً، فإذا حاولنا فهمه بعد فهمنــا لمنزلة العبوديــة وجدنا أن هذا العبــد تمرد على منزلتــه وتقمّص خصائص الله فــي المغفرة وعــدم المغفرة، وليست هذه من شأن العبد أن يتدخل في أحكام سيده، ولا أن يتكلم نيابة عن ســيده إلا فيما أذن الله، والله ملك لا كالملوك

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠)

بل شأنه أعظم بكثير سبحانه، فهنا غضب الله على هذا العبد المتمرد على منزلته فأحبط عمله، وغفر للآخر لكونه يذنب لكنه يشعر بالندم وتأنيب الضمير، ويعقد العزم على عدم العود، فيعود بمقتضى بشريته وليس تهاوناً من مقام ربه، فهو عبد قصّر في الأوامر لكنه لم يتجاوز حدوده.

وقد اشتد غضب الله على أهل الكبر والاستكبار، فقال في كتابه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ويحشر الله المتكبرين كأمثال الذر(١).

فعند التمرد على مرتبة العبودية يغضب الله جلَّ جلاله، ونستغفر الله من غضبه، يغضب على من خُلق للعبودية ثم يتمرد على ما خُلق له، وقد خلقه الله مناسباً للعبودية في هيئته وشكله وحاله وأصله وفطرته.

ومن التمرد على العبودية لله والخضوع له تأليه الهوى وتضخيم النفس، والاعتداد بها، وهو ما يسميه علماء السلوك (رؤية النفس) بأن يرى أن لها شأناً، وأنها لها اعتباراً، وأن لها حولاً وقوةً، فينظر لعَمَله بعين الإكبار والإجلال، ثم ينعكس

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٢)، وقال: حسن.

هذا النفخ في النفس فيظهر على اللسان فيثني على نفسه وحاله ورأيه وعمله واختياره وقراره، مثل هذه الرؤية تخالف منزلة العبودية والخضوع، إذ أن مقتضى العبودية فقرُك وعجزُك وضعفُك وقلةُ حيلتك، واتهام نفسك بالتقصير لعظيم حق الله عليك.

وسأنقل لك نقلاً دقيقاً ممَن فُتح عليه في العلم بالله والعلم بالنفس ـ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ قال: «واتفقت كلمة القوم على أن دوام الافتقار إلى الله ـ مع التخليط ـ خيرٌ من دوام الصفاء مع رؤية النفس والعجب، مع أنه لا صفاء معهما»[1]. وهي كلمة من فهم منزلة العبودية والخضوع والذل لله، ونقل إجماع علماء التربية والسلوك عليها، بأنَّ من استشعر الافتقار والذل مع وقوعه ببعض الذنوب مع عدم الإصرار عليها ـ وهو التخليط ـ ذلك خيرٌ من صفاء العبد ونقائه من الذنوب لكنه واقع بالإعجاب بنفسه وتضخيمه لذاته، لأن ذنبه في هذه الحالة يتعارض مع مقام العبودية، أما ذنب الأول بمقتضى الطبيعة البشرية التي يمحوها الاستغفار والتوبة والندم.

---

(١) مدارج السالكين ٢/٤١٢.

ولصيانة الشريعة جانب النفس عن التضخم والتكبر والتمرد على منزلتها التعبدية نجد أنها حرمت مدح الإنسان بوجهه، كما قال النبي ﷺ: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»[1]. ولك أن تتأمل أن الشريعة الراقية التي تحترم مشاعر الناس تأمر بحفنة من تراب في وجه أخٍ أحبك فمدحك، لم هذه الشدة في الفعل؟! وأظن أن فهمك لمنزلة العبودية لله وحساسيتها، وشدة حمايتها أحد الحِكم من وراء هذا التشريع، لئلا نساعد الشيطان على تضخيمه لنفس أخٍ مسلم غافل عن رؤية هذه النفس، حتى ذكَّرناه بها. وعلى كلٍ لابد لمن أراد فهم العبودية أن يتعرف على صفات النفس وخصائصها؛ لأن النفس قد تكون عدوةً للعبودية، ففيها «مضاهاةٌ للربوبية، ولو قدرت لقالت كقول فرعون، ولكنه قدر فأظهر، وغيره عجز فأضمر، **وإنما يخلصها من هذه المضاهاة ذل العبودية**»[2].

وبعدما بان لك ما سبق ستعرف أن الندم الذي يقع من المذنب، والألم القلبي الذي يعصره، والتأنيب الذي يصيبه

(١) رواه مسلم (٣٠٠٢).

(٢) مدارج السالكين ٢٢٤/١.

يعدل عند الله شـأناً عظيماً، ولهذا يفـرحُ الله بتوبة عبده ـ مع غناه عنهـا ـ لأن العبد رجع لمنزلته التـي خُلق لها، وخضع لسيده وولي نعمته، وندم أن خالف أمره، وارتكب نهيه، فما أسرع مغفرة الله لمن هذه حاله؟!.

ومن تضخيم النفس نسبة الأمور إليها والغفلة عن نسبتها لله، مع أن القرآن مملوء بنسبة كل شيء لله، وسأسرد الكلمات القرآنية في سورة سبأ **فقط** مما نسـبه الله لنفسه؛ لتعلم أن الله يتولى كل شيء، وأن غيره ليس له شيء، فنحن أحقر من أن ننسب شيئاً لأنفسنا، ولولاه سبحانه ما حدث شيء أبداً، تأمل ما يلي:

﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ فهو الـذي يجزي لا غيـره، ﴿وَيَهْدِي﴾ فهو الذي يهدي لا أحد يملك منها شيئاً، ﴿نَخْسِفْ﴾ ، ﴿نُسْقِطْ﴾ فإذا شاء خسف الأرض، وأسـقط قطعاً من السماء على مَن يشـاء، ﴿ءَاتَيْنَا﴾ فهو الذي آتى داود منه فضلاً، ﴿وَأَلَنَّا﴾ فهو سـبحانه الذي ألان الحديد لداود عليه السلام، ﴿وَأَسَلْنَا﴾ فهو الذي أسـال له النحاس، ﴿نُذِقْهُ﴾ فالله يذيق من يزيغ عن أمره من الجـن، ﴿قَضَيْنَا﴾ فهو الـذي قضـى علـى داود الموت، ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ فهو الذي أرسل على سبأ السيل، ﴿وَبَدَّلْنَاهُم﴾ فهو

الذي بدَّل حالهم، ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ فالله الذي جازاهم بمحض إرادته، ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فهو الذي جعل لهم قرى ظاهرة، ﴿وَقَدَّرْنَا﴾ فالله الذي قدَّر السير بين القرى مسافات، ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ﴾ فالله هو الذي شتت قوم سبأ، ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ فالله يرزق لا رازق سواه،، ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فهو الذي يجمع الناس يوم القيامة، وهو الذي يفصل بينهم وحده ولا يقدر على ذلك إلا هو، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ فالله الذي أرسلك يا محمد، ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فالله يوسع الرزق لمن شاء ويضيقه على من شاء لحكمة يعلمها وحده، ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ فالآيات آياته سبحانه، ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ فالله يخلف لمن أنفقه ماله، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فالله هو الذي يحشر الناس جميعاً، ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فالله هو الذي يتولى عذابهم ويأمر به، ﴿رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ فالله هو الذي يقذف الباطل بحجج الحق، ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فالوحي وحي الله.

هذه الكلمات التي فيها (نا) الدالة على الفاعلين، ولم أذكر أسماء الله وصفاته في سورة واحدة؛ لتعلم كم نحن مقصرون جداً في حق الله، ومعظمون جداً لحق أنفسنا.

ولا يكتمل فهم العبودية إلا أن نقرأ الكلمات التي يكشف الله لنا ضعفنا وفقرنا، فتأمل الكلمات التالية:

﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦] فبلغ ضعفهم حتى وصل العجز عن نفع لأنفسهم، ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦]، فنفى حتى الضر، فلن يستطيع الضر إلا بإذن الله، ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]، ونفى هنا الرزق وهي القضية التي أشغلت ساكني الأرض كلها، ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] ونفى هنا عن أحد ملك كشف الأمراض والجوائح، ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ [مريم: ٨٧]، ونفى هنا الشفاعة إلا بإذنه، ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠] ونفى أيضاً قدرتهم على الخلق ولو ذباباً، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] ونفى هنا مثقال ذرَّةٍ وهذا غاية العجز والهوان، ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣] فنفى أي ملك عنهم إلا بما ملكهم الله المالك لكل شيء، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢] ونفى هنا قضية النصر نهائياً فلا يملك النصر إلا رب النصر،

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠] ونفى هنا قدرتهم على رد ما يأتيهم من الله سبحانه، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠] ونفى عن الميت قدرته حتى على الوصية فضلاً عن الرجوع للدنيا، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] ونفى هنا على لسان نبيه قدرته ـ مع جاهه عند الله ـ نفع نصحه، مع أن النبي ﷺ لا ينقصه إخلاصاً وصدقاً لكن لن ينفع كلامه إلا بإذن ربه، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦] ونفى عنهم العلم فلا يعلم البشر إلا ما علمهم الله، وكل تقدم في شيءٍ من العلم إنما هو من علم الله أذن أن يُعلم، وما جهله البشر أكثر مما علموه، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ [الدخان: ٤١] وهذا يوم القيامة فنفى عنهم الإغناء والمدافعة، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور: ٤٦] ونفى هنا نفع الكيد، فليس الأمر عائداً إلى الذكاء والحيلة، ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤] وهذا بمثابة تحدٍ لهم أنهم لن يأتوا بمثل هذا القرآن، وقال نبي الله إبراهيم عليه السلام ـ وهو من هو ـ لأبيه: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وأعجب ما أنت واقفٌ عليه في بيان أن العبد لا يملك شيئاً، وليس له الحكم على شيءٍ إلا فيما أذن الله فيه، لما قال

النبي ﷺ: «كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم»[١] فأنزل الله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨] حتى نبيه ﷺ لم يأذن له أن يحكم بأنهم لا يفلحون، فكأنه قال له: ليس إليك يا محمد من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري، فأمرهم إليَّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أحكم بالذي أشاء من التوبة على من كفر أو العذاب في الدنيا أو في الآخرة[٢]. هذا وهو محمد اللهم صلِّ عليه وسلم.

فهذه هي حقيقة العبد في كونه لن ولا يمكن أن يعتمد على نفسه لحظةً واحدة، وأنه محتاج لله في كل صغائر أموره وكبارها، وفي دنياه وقبره وآخرته.

ومن تتبع مثل هذه الآيات ظهر له الحجم الحقيقي للإنسان، وأنه عبدٌ فقير ضعيف عاجز، ولن يغنيه ويقويه ويمكنه إلا الله.

ولنفهم العبودية والخضوع لله أكثر فلنُعِد قراءة تلك الكلمات؛ لنعرف كم يُعَرِّفُنا الله بنفسه، وكم يذكرنا بهيبته، وكم يعيد أنفسنا لمرتبتها اللائقة بها، وأنها تحت تصرفه

---

(١) رواه مسلم (١٧٩١).

(٢) تفسير الطبري ٦/٤٢ بتصرف.

ومشيئته، وأنه يملك كل ما لأنفسنا، وأننا لا نملك أي شيء، ولا نقدر على شيء، فليس لنا إلا الإلتجاء إليه سبحانه، والتذلل بين يديه، فهو أهلٌ أن يُعبد سبحانه، ونحن شرفنا فيما خُلقنا له من العبودية.

ويعتبر تعظيم النفس إحدى أكبر العوائق عن تحقيق العبودية، وقد شبهها ابن القيم بالجبل، حيث قال: «فالنفس جبلٌ عظيمٌ شاقٌّ في طريق السير إلى الله ﷻ، وكلٌ سائرٌ لا طريق له إلا على ذلك الجبل، فلابد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاقٌّ عليه، ومنهم من هو سهل عليه، وإنه ليسير على من يسره الله عليه»[١].

ومن شدة عناية أهل العبودية بإخضاع النفس لله حذَّروا من كلمة «أنا» و«عندي» و«لي»، ووجهوا العبد الذي يريد تربية نفسه على الخضوع لله أن يجعل هذه الكلمات وسيلة له تقربه لله، فيقول: «أنا العبد المذنب الفقير»، و«لي الفقر والمسكنة»، و«اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي»[٢]. أرأيتم كيف أن قضية الخضوع لله قضية

---

(١) مدارج السالكين، ٢/١٠.

(٢) زاد المعاد ٢/٤٣٤.

حساســة لا يمكن خدشــها حتى باللفظ غير المقصود، حتى يعتاد اللسان على الحذر.

إن كثرة نسبة الأشياء لنفسك تضعف فيك جانب تقدير الله من غير شــعور بذلك، كما أن جريان اســم الله على لسانك وإرجاعك الأمور لفضلــه وجوده ينقي النفــس من العظمة، ويعظم قدر الله في قلبــك، وكان النبي ﷺ، والصحابة الكرام انصبغوا بالعبودية والتذلل لله ونسبة الأمور إليه حتى في دقائق أمورهم، كما قــال النبي ﷺ يرتجز بشــعر ابن رواحة رضي الله عنه، فيقول: «لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا»[1].

وقد زاد الواقع المعاصر الحداثي من تضخيم النفس جداً حتى جعل الإنسان هو مركز الكون، وسعى في تقديس النفس وأهوائها، وجعلها أهم المهمــات، ونادى بتحقيق كل رغباتها، وغيّر مفهوم العبودية والتذلل، وحاربه، وجعل وظيفة هذا العبد الفقير هو الســعي في توفير ســعادته ولذته وفق ما يمليه عليه هواه، وهو ما كشــفه الله عنهم بقوله: «أفرأيت مــن اتخذ إلهه هواه»، وزخرف القول في قوة العقل ومكانته، مع أن الله منحنا هذا العقل ليكون عوناً لنا على عبوديتنا لله وتذللنا له سبحانه.

---

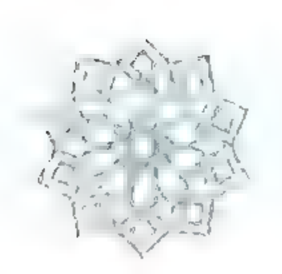
(١) رزاه البخاري (٤١٠٦).

وأختم هذا المبحث بالحديث العجيب ـ في قضية العبودية ـ القدسي، حيث قال الله: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته» وقال: «يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته»، وقال: «يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته»[1]. كرر كلمة (كلكم) وتلفظ بها من كل قلبك الفقير الضعيف يا أيها الضعيف.

فإن قلت: ظهر لي فقري وعجزي، وأريد أن أخضع لله، فمن أين يبدأ خضوع القلب لله؟ قلت لك: تجد ذلك في العنوان التالي.



(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).



من أين يبدأ الخضوع والذل؟

خذ هـذا المثال مدخلاً: «تخيل أنك ذهبت إلى السـوق، ودخلت محلاً تجارياً، وقابلت فيه رجلاً يتسوق مثلما تتسوق، ودار بينكما حديث، وأنت على بساطة اللقاء، وعدم التكلف في تصرفاتك، وأثناء الحديث عرَّفك الرجل بنفسه وعمله، فهو وزيرٌ في دولة بلدك، هل تستمر معه بالحديث بنفس ما كنت من البسـاطة وعدم التكلف أم سيكسـوها الاحترام والتبجيل والحذر من الزلل؟!»[١]، فطريقة المعاملة تحددها المعرفة.

فأول ما يبدأ به مريد الخضوع والتذلل لله، والساعي في فقه العبودية وفهمها؛ التعرُّف على الله جلَّ جلاله، فلن يكون هناك خضوع حتى تعرف الله، وأول ما تعرف من ذلك أسماؤه وصفاته التي ذكرهـا لنا في كتابه، وعلى لسـان نبيـه ﷺ. وقد قال الله لملائكته: «وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشـد لك عبادةً، وأشد لك تمجيداً، وتحميداً، وأكثر لك تسبيحاً»[٢].

---

(١) حقيقة العبودية، مجدي الهلالي، ص٣٠.

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٨).

وأســـماء الله كثيرة من أحصى تسعة وتســـعين منها دخل الجنة، ومع هذا فحتى هذه التســـعة والتسعون نـجهل أغلبها، ونُقصِّر في العلم بها، وبعض أسماء الله لها أكثر من معنى، فلا نعلم إلا أحد المعاني ونظن أننا على علم، وهذا يثبت جهلنا في هذا الباب، وكثير من أســـماء الله مهجورة في دعائنا، وقد اختبرت نفســـي مرة: كم مـــرة دعوت باســـم الله «المقيت»؟ فأستغفر الله من الجواب.

وما دام أنه قد جاء ذكـــر المقيت، فمنَّا مـــن يعلم معناه ولكن ينســـى أن يدعو الله به، وهذا نوعٌ من الهجر، ومنَّا من يعلم له معنى واحداً ـ وهذا نوع قصـــورٍ ـ وهو القوت، أي: الذي يوفي كامل الرزق للإنســـان والحيـــوان، بينما هو في الحقيقة أشـــمل من ذلـــك، إذ يشـــمل كونه مقيتـــاً للقلوب بالمعرفة والإيمان[1]، ومما يجهله الغالب منَّا أن للمقيت معانٍ أُخر[2]:

١ ـ المقتدر.

٢ ـ الحفيظ.

---

(١) أسماء الله الحسنى، سعيد بن وهف، ص٨٨.

(٢) ذكرها وآثارها ابن جرير الطبري في تفسيره ٥٨٣/٨.

٣ ـ الشهيد.

٤ ـ الحسيب.

وكلها معانٍ صحيحة في اللغة، ولهــا ما يؤيدها في حق الله، فمَن منَّا دعا الله باســم المقيت على معنى قوت الرزق؟ ومَن دعا على استحضار معنى قوت العلم للقلب؟ ومَن دعا على اســتحضار معنى القدرة الإلهية العظيمــة؟ وهكذا بقية المعاني، هذا في اسم واحد فكيف ببقية الأسماء الحسنى؟!.

ذكــرت ذلك لنعترف في قــرارة أنفســنا بالجهل العظيم والعميق في أسماء الله الحســنى الذي هو بوابة خضوعنا لله، ومالم نعرف الله بأسمائه وصفاته التي أعلمنا بها فلن نلج باب الخضوع إلا في الظاهر دون الباطن، ومن أعظم صور الجهل المعاصر الجهل بالله وأســمائه ولو وصل الدارس إلى أقصى تفاصيل الــذرة أو الجينات؛ لأن أولى مهــام العبد أن يعرف سيده وأسماء سيده وصفاته.

إن كل اسم من أسماء الله لا يمكن للعبد أن يستغني عنه، ولن تســتقيم حياته إلا بهذه الأســماء كلها، ولكل اسم منها عبوديته الخاصة، وآثاره على الإيمان وفهم العبودية، وحينما لا يقدر العبد شــيئاً من أســماء الله يقع الانحــراف عنده في

مفهوم العبودية، ولهذا قال نوح لقومه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وبيَّن الله سبب إعراض المعرضين فقال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج: ٧٤].

فالخضوع إذن يبدأ من معرفة العبد بربه، ويزداد بزيادة المعرفة، بهذه القاعدة التي ليس لها استثناء ما دامت السموات والأرض، ولا يقف معرفتنا بأسماء الله عند حد خضوعنا له، بل إن دوام تذللنا له، واستحضارنا لمعيته، ومراقبتنا له تتأثر بمقدار حضور الأسماء الحسنى في قلوبنا، فلا تتوقع منزلة إحسان بدون علم الأسماء الحسنى أبداً، وكذلك كل غفلة في قلوبنا إنما هي لفوات شيءٍ من معاني الأسماء الحسنى عندنا، وكلما زاد الجهل بالأسماء زادت الغفلة في القلب.

فإن قلت: عرفتُ أن الخضوع والذلَّ لله يبدأ بمعرفة أسمائه وصفاته، فأيُّ أسماء الله يكون أساس ذلك وأصله؟ فيجيبك مَن فتح الله عليه بعلم فقه القلوب ـ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بأن من عَبَدَ الله باسمه الأول والآخر حصل له الافتقار[1] والذُّل والخضوع لله، فإن انضاف إلى ذلك عبوديته باسمه الظاهر

---

(١) طريق الهجرتين، ١/٣٦.

والباطن، فهذا يسميه ابن القيم: «العارف الجامع لمتفرقات التعبد ظاهراً وباطناً»[1]. ولعلك القارئ الكريم تتساءل: لِم اختار ابن القيم هذه الأسماء دون غيرها؟ سأخلص كلامه في النقاط التالية:

١ ـ أن معنى اسم الله الأول: الذي ليس قبله شيء، والتعبُّد لله بهذا الاسم يجرد العبد من الاعتماد على الأسباب اعتماداً كلياً، وإن من أكبر التحديات في فهم العبودية اليوم هي قضية تعلق القلوب بالأسباب التي يعتقدونها توصل لمرادهم، ولأن هذا الكتاب التزمتُ فيه سهولة المعلومة حتى نفهم العبودية فسأستعين الله في تسهيل إشكالية الأسباب في الحياة المعاصرة في النقطة الآتية:

٢ ـ إن الحياة المادية اليوم أغرقت الناس بالتعلق بالأسباب من حيث لا يشعرون، ثم ازددنا تعلقاً بها لجهلنا بالتوكل الشرعي، فكل ما حولنا اليوم هو من الأسباب التي خلقها الله، فهناك أسبابٌ لشفائنا، وهناك أسباب لوظائفنا، وهناك أسباب لدراستنا وشهاداتنا، وأسباب لأرزاقنا، ودعوتنا، وعلمنا، وعملنا، وسائر متطلباتنا الحياتية.

---

(١) المصدر السابق.

٣ ـ مع ضعف مفهوم الخضوع لله، وضعف العلم به طغت الأسـباب، وتعلقت قلوبنا بها تعلقاً كبيراً، وأكثر الناس اليوم يعبدون الأسـباب ـ من حيـث لا يشـعرون ـ لتعلقهم بها، وحزنهم عليها، وفرحهم بها.

فتجد أن مَن مَلَك أسـباباً قوية قلبهُ مطمئنٌ، ومن كانت أسبابه التي بين يديه ضعيفةً = قلبه مضطربٌ. فالشخص الذي يملك وسـيلةً قويـةً بإحدى الجهـات الوظيفيـة ـ كمعرفته لمسؤول متمكن فيها ـ تجده يبذل أسـباب تحصيل الوظيفة وهو مطمئن القلب، وهذه الطمأنينة نتيجة لقوة ما يملكه من سببٍ ومعرفة في تلك الجهة.

بينما تجد مَن لا يملك تلك الوسيلة عند تلك الجهة قلق القلب ومضطربه، إن هـذا المثال التقريبي يـدل على تعلق القلب بالأسباب وليس بالله مسبب الأسباب، إذ لو كان تعلقه بالله صحيحاً لما اختلف حال قلبه سـواء إذا كانت الأسباب قوية أو ضعيفة.

وقد مـرَّ أول الكتاب تقرير ابن تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من تعلق بشـيء عبده، وإن لم يسـمه عبادة، فالعبرة بحقائق القلوب، وليس بوصف الألسنة.

٤ ـ من تعبد لله باسمه الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه سبحانه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد؛ لأنه لم يكن شيئاً مذكوراً، فمن الله الإعداد، ومنه الإمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل والأسباب من فضله وجوده، ولو لم يتفضل عليها لما كانت أسباباً = فمن استشعر ذلك أوجب له هذا الشعور افتقاراً وخضوعاً خاصاً[١].

٥ ـ من حقق اسم الله الأول تجرد قلبه عن الاعتماد على الأسباب؛ لأنه عبدٌ لرب الأسباب سبحانه، والكلام هنا في ذم التعلق والاعتماد على الأسباب وليس فعل الأسباب إذ فعلها مأمور به شرعاً وعقلاً.

٦ ـ وأما التعبد باسم الله الآخر فأيضاً يزيدك خضوعاً إلى خضوعك، لأن الآخر الذي ليس بعده شيء، يدل على أن كل شيء يفنى وينعدم، فالأسباب التي تفعلها تنقضي وتزول، ويبقى الله الآخر الذي ليس بعده شيءٌ، فالتعلق بهذه الأسباب تعلقٌ بما ينقضي وينعدم ويزول وينقطع، والتعلق بالآخر تعلقٌ بالحي الذي لا يموت، وهنا يخضع القلب أكثر من ذي قبل، لأن الأسباب من الله وهو مَن جعلها أسباباً، فهي بيده ويملكها،

---

(١) طريق الهجرتين، ٣٧/١ بتصرف.

كما أن الأسباب تنتهي إليه فهو الآخر، ويملكها ويأذن بنفعها أو عدم ذلك، فبالله عليك من استحضر هذا بقلبه أي اطمئنانٍ يقع منه للأسباب، وأي اضطراب يقع منه للأسباب.

وقد بيَّن ابن القيم أن أكثر الخلق يتعبدون لله باسمه الأول[١]، فهم يعلمون أن الله الخالق، والمبتدئ إيجادك ورزقك، لكن أكثر الخلق يغفلون عن التعبد باسم الله الآخر، الذي يقتضي أن تجعل الله نهاية حبِّك، وإرادتك، وتعلقك، وخضوعك، وخوفك، ورجائك، وهذه هي العبودية الحقة.

وأما التعبُّد باسم الله الظاهر الباطن الذي يجعلك في مراتب العبودية المتقدمة فأتركه لك لتراجعه عند ابن القيم في كتابه العظيم: طريق الهجريتن[٢].

فإن فاتك اسم الله الأول والآخر والظاهر والباطن لفهم العبودية، فلا يفوتك اسم الله الحي القيوم، وهو الجامع لمعاني الأسماء والصفات[٣]، فهو أيضاً يجمع أساس خضوع القلب وذلّه لمن وفقه الله.

---

(١) المصدر السابق ٣٩/١.

(٢) طريق الهجرتين ٣٩/١ وما بعدها.

(٣) زاد المعاد ١٨٤/٤.

فاسم الله الحي الذي يقتضي أن الله له الحياة الكاملة، وأنه هو واهب الحياة، وأنه لا يموت ولا ينام ولا ينبغي له أن ينام، ويهب الحياة الكاملة لمن خضع له وتذلل له، فكان أكمل الناس حياة في الدنيا من تعلق بالحي سبحانه، ثم في البرزخ تحيا روحه وتُنَعَّم، وفي الآخرة يعطيهم الحياة الخالدة التي لا هم فيها، ولا حزنٌ، ولا غمٌ، ولا نكد.

والقيوم القائم بنفسه فلا يحتاج لأحد يقيمه، والقائم على غيره، فهو مستغنٍ عن غيره، وغيره محتاج إليه، والله قائم على كل حاجات المخلوقات، فلقيوميته لا يتعذر عليه فعلٌ البتة، فهو أهلٌ أن يخضع له، وأن يتذلل له حتى يرضى.

فلكمال حياته يتصف بكل صفات الكمال والجلال، ولكمال قيوميته يتصف بكل صفات القدرة، فاسم الله الحي يشبه اسم الله الأول والآخر، واسم الله القيوم يشبه اسم الله الظاهر والباطن.

فلا تتهاون في معرفة قدر هذه الأسماء، ففهم معانيها واستحضارها له أكبر الأثر على الخضوع والتذلل والانقياد لله، والاستسلام له سبحانه، ورجائه، والتعلق به، وتقديره وتعظيمه وإجلاله، حتى أن ابن تيمية شديد اللهج جداً باسم الله الحي

القيوم، وقال لتلميذه ابن القيم: لهذين الاسمين ـ الحي القيوم ـ تأثيرٌ عظيم في حياة القلب، وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم[١]، كما أن لهما تأثيرٌ في إجابة الدعوات، وكشف الكربات[٢].

فالله سبحانه نجده وراء كل حدث يحدث، فهو محدثه ومسببه، ومالكه ومصرفه، ورافعه، ومدبره، فلنرجع الأمور إليه ظاهراً بألسنتنا، وباطنا بقلوبنا، فهو الملك العظيم، ونحن العبيد الخاضعون الفقراء.

ومعرفة الله لا يخلو منها قلب مؤمن، ومَن ذا الذي لا يعرف الله؟! لكن إن أردت فهم العبودية فهماً راسخاً فلتكن معرفتك بالله معرفة راسخة، تزداد مع الأيام قوةً ورسوخاً، فإن المعرفة العامة الضعيفة تنتج عبودية ضعيفة، وخضوعاً هيناً، يتأثر بالموعظة ثم يرجع لغفلته، وكل ما تريد معرفته عن الله ستجده في وحيه ـ كتاب الله وسنة النبي ﷺ ـ فالزمهما، وتفقه فيهما، حينها فقط ستعرف الله[٣].

---

(١) مدارج السالكين ٤٦٦/١.

(٢) زاد المعاد ١٨٤/٤.

(٣) وهناك فصل في أثر علم الأسماء على العبودية في كتاب مفتاح دار

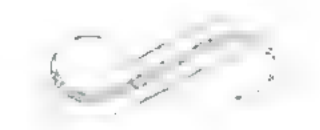
فإن فاتك فقه اسم الله الحي القيوم فلا أقل من فهم معنى حديث (سيد الاستغفار): «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وهو يلخص فهم العبودية؛ لأنه جمع للعبد الاعتراف بربوبية الله وسيادته، والاعتراف بالعبودية له، وذكر التزامه على العهد والوعد وهذا من مقتضيات حال العبد أمام سيده، ومطالعة منَّة الله بالنعم، والاعتراف بذنوبه وتقصيره والاستعاذة والبراءة منها، وهذه كلها أصول مقام التعبُّد والافتقار لله سبحانه وتعالى.

دعني أرجع معك القارئ الكريم إلى معلومةٍ ذُكرت عرضاً في ثنايا الكلام، ألا وهي أن أكبر التحديات المعاصرة في فهم العبودية هو تعلق القلوب واعتمادها على الأسباب، فهل هذه الكلمة وردت بقصدٍ لحقيقة معناها أم من حشو الكلام؟! وما هي الأسباب المعاصرة التي تحول دون فهم

= السعادة ٢/٩٠ وما بعده، كما أنصح وبقوة بكتاب: (المرتبع الأسنى في رياض الأسماء الحسنى) للشيخ عبد العزيز الداخل.

الخضوع لله؟! ولِـم كانت الأسباب المعاصرة من أدوات سوء فهم العبودية والتعبُّد لله؟! وهذا يستحق أن يفرد بعنوان يُفصَّل فيه الكلام، وسيكون في العنوان القادم.





العتب على فعل السبب خللٌ في فهم العبودية

يُحاط العبد بأسبابٍ كثيرةٍ من حوله، هي وسائل لحصول مقصوده ومطلوبه، ولا يُعبد الله إلا عن طريق أسباب شرعها سبحانه، وللشيطان مصائدُ في هذه الأسباب، يصيد بها القلوب ليصرفها عن اعتمادها على ربها، وهذا من خبث مكره وكيده، وتميَّز عصرنا الحاضر بكثرة الوسائل والأسباب، فأسبابٌ للرزق كثيرة، وأسبابٌ للظهور والشهرة، وأكثر من ذلك أسبابٌ للإعجاب والإكبار، وأخرى للمناصب والجاه والتقدير، وأسبابٌ للعلم وطرقه، وكذلك للدعوة ووسائلها، وغير ذلك كثير. فكان من الضروري أن يتعلم العبد فقه الأسباب، وكيفية التعبُّد لله بها، والحذر من أن تصُدَّه عن ربه، وتحول بينه وبين توكله على مولاه. وموضوع الأسباب مع العبودية يكتنفه الخطورة لعدة أسباب، منها: الفقرُ الذاتيُ في القلوب، فمن طبيعة القلب أنه فقيرٌ مفتقرٌ، فإذا اجتمع معه جهلٌ بفهم العبودية والخضوع وصبغة العبودية، ثم اجتمع مع ذلك التنافس في الدنيا الذي حذَّرنا منه النبي ﷺ، مع تشويه وخلط بين التوكل والتواكل عند بعض الفرق، مع إرادة

للبعض أن يقيس الحيـــاة الغربية المادية البحتة ويريد تطبيقها على الحياة الإيمانية = فقد هلك العبد.

فحينما يلتبس مفهوم التعبُّد لله والخضوع له، ويريد العبد أن يـُحصِّل أســباب الرزق، فتجده في قلقٍ وهمٍّ واضطرابٍ، ولا يكتفي بفعل الأســباب المقدُورةِ بين يديه حتى يفكر في أسباب ليست بمقدوره! ثم يزداد فقرُ قلبه فيفعل الأسباب التي لا تُرضي الله ـ كالرشـــوة والغش والخيانة والخداع وغيرها ـ وقد لا يفكر في الأسباب الشرعية إلا بشيءٍ من الدعاء، أما أن يوقن بأن التوكل هو أقوى الأســباب فهذا بعيدٌ مع عدم فقه العبودية، وإن فعل ســبباً من الأســباب الشــرعية فليس قلبه بِــمطمئــنٍ إليها اطمئنانه للأســباب الأخرى، كمــا أنه يقيس الأســباب قياســاً عقلياً محضاً، فالنقاط الأكثر تعني النجاح المؤكد، وكثرة المال تعني بركته، وصرف المال تعني قلته ثم انعدامه. إن هذه التصرُّفات تدل علــى أن هناك خللاً في فهم العبودية، وإلا فمقام العبد أن يفقه عن ســيده الأســباب التي عيَّنها له وحددها، ثم يطيع ســيده في فعله لها امتثالاً لأمره، وقياماً بحق الطاعة والخضوع لسيده، وأن يشاهد بقلبه منّة الله عليه في إقداره عليها، وتمكينه منهــا، كلُ ذلك وقلبه معتمِدٌ

على سـيده وولي أمره أن يبـارك فيها، وأن ينفـع بها، وأن يجعلها موصلة للمقصود الذي يبتغي به وجه مولاه.

إن الخلل في الفهم المعاصر للعبودية والخضوع والتذلل جعل قلب الإنسان مُعرِضاً عن سيده، معتمداً على قوة سببه، لا يهدأُ له بالٌ حتى يحصل على ما يريد، فإن لم يحصل جاءه من الجزع والتسخط ما يبعده عن منزلة العبودية.

واسمع هذا المثل القيِّم من ابن القيم لتفهم كيف يتعامل العبد الخاضع الـمُحب مع الأسباب، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأسباب هي كالطريق الحسي الذي يقطعه المسافر إلى مقصده، فإن قيل له:

١ ـ ارفض الطريـق ولا تلتفت إليها: انقطع عن المسـير بالكلية.

٢ ـ وإن جعلها غايته ولم يقصد بالسـير فيها وصوله إلى مقصدٍ معين: كان مُعرضاً عن الغاية، مشتغلاً بالطريق.

٣ ـ وإن قيل لـه: التفت إلـى طريقك ومنازل سـيرك، وراعها، وسـرْ فيها ناظراً إلى المقصود، عاملاً على الوصول إليه، فهذا هو الحق»[١].

---

(١) مدارج السالكين ٣/٤٦٢.

إن الشريعة الإسلامية رفعت من شأن الأسباب، وربطتها بمسبباتها، وجعلت الدين هو إثبات الأسباب، ولا دين إلا بذلك، وبالأسباب عُرف الله، وبها عُبد الله، وبها أُطيع الله، وبها أرسل رسله وشرع شرائعه، ففعلها والإيمان بأثرها هو الواجب شرعاً، كما هو الواقع قدراً[١]. والنبي ﷺ فعل الأسباب واجتهد فيها، فاتخذ درعاً، وظاهر بين درعين يوم أحد[٢]، ولم يحضر الصف قط عرياناً بدون سلاح، واستأجر دليلاً مشركاً[٣]، وكان يدخر لأهله قوت سنة[٤]، وإذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد والسلاح والعتاد.

فكل من كان عنده خللٌ في الأسباب وآثارها فلديه خللٌ يناسبه بالاستعانة والتوكل ولا بدَّ، إذ مجال الأسباب هو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وإنما جاء الخلل اليوم في نظرة العبد للأسباب التي يمارسها في حياته، وقد يكون ساعده على ذلك تضخيمه

(١) مدراج السالكين ٣/٣٧٧.
(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٥٠) وصححه الألباني.
(٣) رواه البخاري (٢٢٤٦).
(٤) رواه البخاري (٥٣٥٧).

لذاته، ورؤيته لنفسه بإعجاب وإكبار، فينصرف اعتماد قلبه إلى الأسباب التي يظنها توصله لمراده، ومع ترصُّدِ الشيطان لإيمان المؤمن واستغلاله لفرصة اجتيال العبد المؤمن، فيشغله بالأسباب والالتفات إليها، والنظر إليها، وينسيه مسبب الأسباب سبحانه، ولا تعجب من ذلك فهو عدوٌ مبين.

إن فهم العبودية والخضوع لله يجعلك توازن بين أمرين: أمرُ الله بفعل الأسباب وتكميلها، وأن يبقى القلب متعلقاً معتمداً متوكلاً على ربه.

وإن للشيطان لَـمَّتَين عند ذلك: أحدهما في ترك الأسباب وإهمالها ليفشل له الأمر الأول، والأخرى صرف اعتماد القلب لتلك الأسباب ليفشل له الأمر الثاني.

فيقع العبد حينئذٍ بالخروج عن الخضوع لله والتذلل له؛ لأنه إن أهمل الأسباب لم يطع كلام مولاه الذي أمره بفعلها فاختلت العبودية لعدم طاعته وخضوعه والتزامه، وإن اعتمد على الأسباب اختلت العبودية أيضاً لأن العبد لا يعتمد إلا على سيده وليس على مخلوقٍ مثله.

ولهذا بيَّن ابن القيم أن هناك من العباد من ذاق طعم التعبُّد لله بالأوراد والذكر لكنه لم يذق طعم ذلك بالتوكل

والاســتعانة![1]. ففعل الســبب عبودية وخضوع لله، والتوكل والاستعانة عبوديةٌ أخرى تضاف على ذلك، فالتفريط بإحدى العبوديتين خللٌ.

«فإن قلت: فما معنى التوكل والاســتعانة؟ قلت: هو حالٌ للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليــه، وطمأنينةً به، وثقــةً به، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه»[2].

فإن قلت: هل من تمام العبوديــة والخضوع لله والافتقار إليه ألّا أنظر للأسباب ولا ألتفت إليها؟ يجيبك ابن القيم بأن في ذلك تفصيل:

١ ـ هناك نظــرٌ والتفاتٌ مأمورٌ به مطلــوب: وهو أن يقف معها حيث أوقفه الله ورسوله، فلا يتعدى حدودها، ولا يقصر عنها، فيقف مع الأسباب مراعاةً لحدودها وأوقاتها وشرائطها، وهذا الوقوف لا تتم العبودية إلا به، فيفعل أســباب تحصيل

(١) مدارج السالكين ١/١٠٣.

(٢) المصدر السابق ١/١٠٣.

نصرة الدين، والعلم، والرزق بالأسباب التي شرعها الله، ويجتهد في فعلها ولا يُقَصِّر في ذلك، وفي هذه الحالة ليحذر: الانقطاع عن رؤية المسبب سبحانه، بأن ينسى أن الله هو الأول، وهو مسببها وخالقها، وهي بيده سبحانه إن شاء أمضاها، وإن شاء منعها، فقد ينسيه فعل السبب ـ وتتبعه والاجتهاد في تحقيقه ـ اعتماده على الله.

فمَن عرف هذا النظر والالتفات عرف أنه من تمام العبودية أن تؤمن بأن هذا السبب سببٌ شرعي صحيح، وإيمانك بهذا نتيجة لإيمانك بالله الخالق، وعَرَفَ أيضاً أن القيام بهذا السبب امتثالاً لأمر الله عبودية يُؤجر عليها، ويحبها الله من عبده. وبهذا نعلم أن إهمال الأسباب عن النفع قدحٌ في العقل والفطرة والشرع.

٢ ـ وهناك نظرٌ والتفات محرم: بأن يعتقد أنها هي الفاعلة المؤثرة بنفسها، وأنها تنفع وتضر بذاتها، وهذا وإن كان بعيدَ الوقوع من المؤمن إلا أن فروع هذا الاعتقاد قد تقع منه، كأن: يعتمد على الأسباب، أو يطمئن إليها، أويقصر نظر قلبه وتفكيره عليها، أويرجوها ويخافها، أويقلق لعدم تمكنه مما هو أكثر منها، أويضطرب قلبه إن كان شيءٌ منها ضعيفاً، مع أنه

بـــذل كل ما يمكنه بذلُـــه، وكل ذلـــك نتيجـــة لإعراضه عن مســـببها ﷻ، ولهذا ورد في العنوان (اعتماد القلب على فعل الأسباب خللٌ في العبودية) لأن الاعتماد لا يكون إلا على الله.

وقد ذكر علماء الســـلوك ضابطاً يعينـــك على فهم قضية الأسباب:

أَلَّا يبقى فـــي قلبك اضطرابٌ من تشـــويش الأســـباب، ولا سكونٌ إلى الأسباب.

فتلاحظ أن علماء السلوك يقصدون طمأنينة القلب، بأن يبقى القلب مطمئناً؛ لأنه عبدٌ واثق موقن معتمد على ســـيده، لا على جهده واجتهاده وأســـبابه، فمَن استطاع الجمع بين نظر القلب لله اعتماداً، ونظر القلب للسبب فعلاً وبذلاً فهم العبودية والخضوع.

وجمعوا في ضابطهم بين (التشـــويش) و(السكون) بناءً على قوة الأســـباب فتورثه الســـكون، أو أنها ضعيفةٌ فتورثه التشويش، فالعابد معلقٌ قلبه بربه معتمدٌ عليه دون غيره.

فمَن فهم العبودية والخضوع لله والتذلل له والافتقار إليه فعل الأسباب وقلبه مطمئن بالله، راضٍ به وبما يكتبه ويختاره لعبده، وليس في فعل السبب ما ينافي التوكل على الله.

لله وبالله

بعدما ظهرت لك معالم العبوديـــة والخضوع لله، وزادها ظهوراً مشاهد الأسماء الحســنى، وفقهت موقع الأسباب من العبودية، ولِـيكتمل فهمــك للعبودية فكن فقيهــاً في هاتين الكلمتين: لله وبالله.

أما لله:

فالله غايتنــا، وإياه نعبــد، فالعبد الخاضــع الذليل لربه، المستكين له لا يسعه إلا أن يكون الله هو غايته ومقصوده، فلا يريــد إلا الله، ولا يقصد بحركاته وســكناته إلا وجه الله؛ لأنه سيده الكامل، كما قال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣] والدين هو الخضــوع، فالخضــوع الخالص الصافي يكــون لله؛ لأنه المســتحق أن يُـخضع له، إذ فيه صفات السيادة كلها، ومدح عبــاده لقولهــم: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [الإنســان: ٩]، وهــؤلاء أعمالهــم كلها لله، وأقوالهــم لله، وعطاؤهــم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فلا يقصدون بأمورهم إلا الله وحده، فما أحبــه الله فهــو المحبوب عندهــم، وما أبغضــه الله فهو المبغوض لديهــم، وإن علموا أن الله يحب الــكلام في هذا الموضع تكلموا، وإن علموا أن الســكوت أحب إليه سكتوا،

ولا يتحركون إلا لما يطلبه منهم ربهم، فجعلوا كل علاقاتهم الحياتية والأسرية والوظيفية والاجتماعية والعلمية والعملية تحت سلطان الله وشرعه، ولا يطرأ على بالك أن لديهم جفاءً في المعاملة، أو شدةً وغلظة في تعاملهم، إنما المراد أنهم يعاملون الله في تصرفهم مع أهلهم وزملائهم وأموالهم، فليس الهوى هو المتحكم بمشاعرهم، فلا يغضبون في موطن لا يحب الله الغضب فيه، وإن غضبوا لم يحملهم الهوى على الظلم، وإن قدروا عفوا؛ لأن الله يحب العفو، فغلَّبوا محبة الله على أهوائهم، وإن انتصروا فلا ينتصرون لمجرد أن أنفسهم أُهينت، إنما لأن الله أمر بالانتصار من الظلم، وأن الله لا يحب الظلم ولا يرضى به، فهؤلاء حققوا إياك نعبد، فخضوعهم لله دون غيره.

وأما بالله:

فبالله نستعين، وهو المستعان، فما نقوم به نحن العبيد الخاضعون الفقراء إنما هو بإعانة الله لنا، لا بحولنا ولا بقوتنا، فإن أكلنا قلنا: باسم الله، مستعينين بالله على هذه اللقيمات، فلن نأكل إلا بإعانته، وإن فرغنا قلنا: الحمد لله الذي أطعمنا من غير حولٍ منا ولا قوة.

وإن دخلنا قلنا: باسم الله، متوكلين على الله في دخولنا، فدخولنا بإعانته، وإلا فنحن أضعف من أن ندخل، وإن خرجنا قلنا: توكلنا على الله في خروجنا، معتمدين عليه، وإن اضطجعنا للنوم قلنا: باسمك اللهم وضعت جنبي، فأنت أعنتني على ذلك، ولولاك لما قدرت، وإن استيقظنا قلنا: الحمد الذي أحيانا بعدما أماتنا، فلا نملك لأنفسنا حياة ولا موتاً، وإن ركبنا قلنا: سبحان الذي سخر لنا هذا، فلولاه لما تروَّض لنا دابة، ولا اخترعت سيارة وطيارة، وإن سافرنا قلنا: اللهم أنت الصاحب في السفر، فإن صحبتنا فلنا الأمان من كل المخاوف.

حتى الضحك والبكاء قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴾ [النجم: ٤٣] فضحكنا بإعانة الله لما علم برغبتنا في الضحك أعاننا على ذلك، ولما علم برغبتنا في البكاء أعاننا على ذلك.

حتى حال الخلاء نطلب من الله أن يحمينا من الخبث والخبائث، وإذا خرجنا قلنا: الحمد لله الذي أخرج عنِّي الأذى، فالله هو الذي أعان على إخراج الأذى.

وإن مُنحنا أعطية فالله هو الذي أمر بها، ويسر أسبابها، ودفع موانعها، فنحمده قبل شكر غيره، وإن حُرمنا من شيء

فالله هو الذي منع، لذنوبنا أو لحكمة يعلمها، فلا نلوم أحداً من النـــاس اللوم الذي ينســـينا أن مَن أمامنا بشـــرٌ لا يملك المنع.

ولما جاء الأشـــعريون للنبي ﷺ يسألونه أن يحملهم على دابة، فقال: ماعندي ما أحملكم، والله لا أحملكم، ثم تيسر أمر حملهم، فكأنهم تحرَّجوا من أن النبي ﷺ حلف ألا يحملهم ثـــم حملهـــم، فقـــال ﷺ: «لســـت أنـــا أحملكـــم ولكن الله حملكم»[1]، أي: ما حملتكم لأني لم يكن عندي ما أحملكم عليه، ولكن الله حملكم بما يســـره من الحمولة التي أتى بها بغير فعلٍ مني[2]، انظر كم مثل هذا الموقف يتكرر في حياتنا، فلو قلت: «ولكن الله وظّفك»، «ولكن الله نجّحك»، «ولكن الله أعطاك الترقية»، «ولكن الله أعلى راتبك»، «ولكن الله أنطقك»، كم ستجد من يعارضك الجملة، أو يقول: المفترض ألا تقول ذلك؛ لأن هذا أمرٌ معروف!

وكان النبي ﷺ من شدة تحقيقه للاســـتعانة بالله يقول إذا لقي العدو: «اللهم أنت عضدي ونصيـــري، بك أحول، وبك

---

(١) رواه البخاري (٧٥٥٥).

(٢) الرد على البكري ٣٧٢/١.

أصول، وبك أقاتل»[١]، فكل شيء بالله، هذا مقتضى الخضوع والذل لله.

واسمع ما يقوله الله للمؤمنين الخاضعين حقا من الصحابة الكرام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٤] فالله الذي كفها، فلا تعتمدوا على ذكائكم بإخفاء إيمانكم، ولاحذركم وانتباهكم، مع أهمية ذلك لأن الله أمر بذلك، لكن الفضل لله الذي كفَّهم عنكم.

وبهذا اربط ـ أيها العبد ـ كل تفاصيل حياتك بالله وبإعانته لك، واجعل إحساسك بذلك يقيناً، فالله هو المدبر لكل شيءٍ، الميسر لكل أمر، ولهذا قال بعض السلف: من وَجَد ربه وَجَدَ كل شيءٍ، ومن فاته ربه فاته كل شيءٍ»[٢]، أي من وَجَد ربه في إعانته له في كل ذرة من حياته، فقد وجَد كل ما يريد، لأن كل ما يطلبه بيد الله وقدرته، ومن فاته ذلك واعتمد على حوله وقوته فلن يتيسر له ما يريد.

لعلنا بهذا عرفنا سبب تكرار الرقية على أجسادنا ولا نرى أثراً كما نتصوره، وكما قرأناه في السنة النبوية، أليست الفاتحة

---

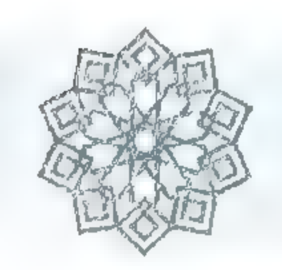
(١) رواه أبو داود (٢٦٣٢).

(٢) الوابل الصيب، ص ٦٤.

قُرئت على لديغ امتلأ جسمه بالسم فقام كأنما كان مربوطاً بحبلٍ ثم أُطلق؟! وكذلك سورة البقرة لا تستطيعها السحرة ومع هذا يقرؤها المسحور فلا يذهب سحره!! والمعوذتان لم يُرَ مثلهما ومع هذا لا نرى أثراً مشاهداً كما كان حال القرون الفاضلة، إن نفع الرقية مبني على ما يوجد في القلب من خضوع واستعانة بالله، وبراءة من الحول والقوة، أي أن تكون الرقية لله وبالله، لله إخلاصاً وصدقاً واستسلاماً والتزاماً، وبالله استعانة وتوكلاً واعتماداً وتفويضاً وثقة.

وأختم هذا المبحث بالتلازم بين أفعالك لله وبالله، فإن من استعان بالله في كل شيء، واعتمد على الله في كل شيء، وأيقين بقدرته الله على كل شيء، قاده ذلك ولا بدّ للخضوع لله والإخلاص له، فتلازمت «بالله» مع «لله».





إما عبوديةُ غير الله أو نقصُ عبودية الله

بعدما اتضح مفهوم العبودية لله، وضرورة إفراده بالخضوع القلبي والتذلل لــه المقتضي للانقياد والاستســلام والمحبة والرجاء وغيرها، أذكرك هنا بــأن كل أمراضنا القلبية يجمعها أحد مرضين:

١ ـ إما عبودية في قلوبنا لغير الله.

٢ ـ نقص في عبوديتنا لله.

أما عبوديتنا لغير الله، فقد مضى بيان أن العبودية لغير الله لا تعني الصلاة له، والذبح له وغير ذلك من مظاهر الشرك، إنما تعني تعلــق القلب بغير الله، ورأينا كيــف أن ابن تيمية يرى أن تعلق القلب وطمعه فــي المخلوقين أن ينصروه، أو يرزقوه، أو أن يهدوه هــو عبوديةٌ لهم على قدر ذلك الطمع، ففتش الآن في الطمع الموجود في قلبك، والرجاء المتجذر فيه، والالتفات المتأصل فيه، والاستسلام المتعمق فيه لِـمَن هو؟

وهذا يستدعي أنَّ مَن فهم العبودية لله فعليه أن ينظف قلبه من أي تعلق بغير الله، وليعلم أن كل تعلق بغير الله هو مصدر عذابٍ وألم له، وهذه سنة الله لمن لم يُعلق قلبه به سبحانه، ومن هنا كان أعظم الناس عذاباً وألماً أهل العشق، «فعذابهم لا يدانيه عذاب»[1]؛ لأنهم صرفوا أهم ما في قلوبهم من الأعمال ـ كالحب والرجاء والطمع والإرادة ـ لغير الله، فكان جزاؤهم أن تسلط عليهم محبوبهم، وأصبح مصدر عذابهم. هذا حكم المُحِب فما حكم المحبوب؟! إن أحسنا تصورنا في فهم العبودية فإنه حتى المحبوب إذا رضي بهذا الحب والتعلق، فهو معينٌ على الإثم والعدوان، وراضٍ بصرف القلوب عن الله، وفيه أيضاً عبوديةٌ لغير الله؛ لأنه أحب أن يتذلل له المُحب، وأن يخضع له، فهو يلبي بذلك فقراً في قلبه، وكان عليه أن يرفض أن يُعبد من دون الله، وأن يمنع ذلك بكل استطاعته. فاتضح أن كليهما ـ المُحِبُ المتعلق والمحبوب الراضي ـ فيه عبودية أحدهما للآخر.

ضربتُ مثالاً في تعلق الإنسان بآخر كامرأة وغيرها، وإلا فالحال ينطبق على من أحب منصباً، أو جاهاً، أو مكانةً، أو

---

(١) العبودية، ص٦٨.

رئاسةً، أو مالاً، وغير ذلك من محبوبات قلوبنا حينما أخطأنا فهم العبودية. فما أكثر المعبودات من غير الله اليوم.

وأما نقص عبوديتنا لله:

ومن أمراض قلوبنا المعاصرة ـ التي تمنع فهم العبودية والذّل لله ـ نقصان عبوديتنا لله، بمعنى أن في قلوبنا خضوعاً وذلاً لله، ومحبةٍ له، إلا أن قلوبنا لم تستكمل خضوعها وذلها وحبها كاملاً لله، فأصبح في القلب ثغرة يدخل من خلالها إبليس، وإلا لو أكملنا خضوعنا لله لما دخل إبليس إلا مسّاً كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فسمى الله علاقة الشيطان بقلوب المتقين العابدين الخاضعين لله مساساً، مما يدل على عدم استقراره في قلوبهم؛ إذ لا مكان له، فقلوبهم استكملت ذلّها وخضوعها وحبها لله. فمَن تعلق قلبه بأمرٍ ففيه عبودية له، ثم تزيد العبودية والخضوع على قدر ذلك التعلق، فقلوب الناس فيها من التفاوت في العبوديات ما لا يعلمه إلا الله، بسبب تعلقاتهم بغير الله.

وهذا الأمر يستدعي ضرورة تعاهد متعلقات القلب، فإن القلب يصدأ وتنبت فيه بذور تعلقٍ والتفات أحياناً بسبب بعض الظروف التي يمر فيها العبد، فإذا انضاف إلى ذلك قلة

نقه في العبودية، مع قلة الناصحين في باب العبودية، وساعد على ذلك الحياة المادية المعاصرة التي ترسخ الماديات، وتقوي تعلق القلوب بها = فسد القلب وعَبَد غير الله، وإن كان مصلياً صائماً.

فإن فهمت الخضوع لله، وسعيت ـ بعد هذه المباحث ـ في تحقيقه، والسعي في تكميله، فقد قطعت شوطاً كبيراً في فهم العبودية لله والتذلل له والخضوع، وبقي عليك ركنٌ آخر ليكتمل عقد فهمك للعبودية، وتهنأ بالتعبد لله، تجد ذلك في العنوان التالي.





خضوعٌ مع حبٍّ

أكثرت الكلام في الصفحات السابقة عن الخضوع لله والتذلل له، لأن هناك التباساً في مفهوم الخضوع، وتحريفاً لمعناه الرائع، إلا أن التعبُّد لله لا يكون بالخضوع وحده، بل لابد معه من محبة، إذ الله يخضع له ويُحب، فلا يكفي الخضوع حتى يكون معه حبٌ كامل لله، فهذا هو مدار العبودية. وقد يكون في قلوب كثيرٍ من الناس خضوعٌ لله، بل حتى الكافر تأتيه ظروف صحية، أو وظيفية، أو قهرية تجعله يخضع وينكسر أمام قوة الرب العظيم، ولهذا فالجميع عبيدٌ لله من هذه الجهة، لكن التحدي الكبير الذي يواجه مريد العبودية هو أن يكون قلبه مُحباً لله، وأن تزاد محبة الله حتى تستولي على ذرات القلب وتفاصيله، وأن الله ورسوله ﷺ أحب إليه من كل ما سواهما.

فهما أمران متلازمان: كلما ازداد القلب حبّاً لله ازداد له عبوديةً وخضوعاً، وكلما ازداد له عبودية وخضوعاً ازداد له حباً. فليكن من مشاريع العمر أن تسعى في زيادة حبك

لله، حتى تموت يوم تموت وقد وصلت فيه إلى أعلى المراتب.

والسؤال المتقرر هو: كيف تزداد المحبة في القلب لأكون فقيهاً في العبودية لله؟

يكون ذلك بثلاثة أمور[1]:

١ ـ تكميل المحبة لله في القلب: بأن تكون كاملة من جميع ذرات القلب، فلا يترك في القلب مكانٌ لمحبة غير الله.

٢ ـ تفريغها مما يخالطها: بأن تكون خالصة لله.

٣ ـ منع ما يضادها: بأن تصون القلب عما يضاد محبة الله، وتكرهه.

وقد جمع هذه الثلاثة قول النبي ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يُحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[2].

---

(١) العبودية، ص٩٢.

(٢) رواه البخاري (١٦).

فأســاس تكميل المحبة: أن يكون الله ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما، فلا يكفي - إن كنت تريد تحقيق العبودية - أن يكون معك أصل المحبة، بل لابد أن يكون الله ورســوله هما الأحب مما ســواهما، فارجع لقلبك الآن وقس محبة الله فيه، فهل أنت تُـحــب الله، أم أن الله هو الأحب عندك، وفرق بين العبوديتين.

ومادام أنه لابــد أن يكــون الله هو الأحب فــي القلب، والأحب صيغة تفضيل، فهذا يعني سعي الـمُحِب في الازدياد من محبة الله، واغتنام كل سببٍ يوصل لها، فكثير منَّا يُـحب الله، لكنه ليــس الأحب في قلــوب أكثرنا، ولــو كان الله هو الأحب لقدمناه على أهوائنا وحظوظ أنفسنا.

ولتفهم أخــي - طالــب العبوديــة - أن دائــرة محبة الله ورسوله ﷺ واسعةٌ جداً، فلا تضيِّق ما وسع الله، فكل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال داخل في محبــة الله، إنما عليك ألَّا يكون منطلق محبتك هو هواك بل اجعل ســبب حُبِّك لشيء ما هو: أن الله يُحبه، فتُحب العلم لأن الله يُحبه، وتحب الصدقة لأن الله يحبها، وتحب الإحسان لأن الله يحبه، وتحب الوالدين لأن الله يحــب ذلك منــك، وتحب الأهــل والأولاد لأنه الله

يرضى ذلك ويحبه، وتحب الشـرع والدين والخير والصلاح لأن الله يحب ذلك كله، وتُحب إتقان العلم لأن الله يحب ذلك من عبده، والعفو تحبـه لمحبة الله لـه، والانتصار من الظلم تحبه لأنه وافق محبة الله، وأكمل العباد هو الذي لا يحب إلا ما يُحبه الله، ولا يبغض إلا ما يبغضه الله، فقد جعل هواه تبعاً لله، وهؤلاء هم الرسل وأتباعهم.

فإن أحببت شـيئاً مما يحبه الله فاستعن بالله في الحصول عليه، وكثير من الناس قد يُحب لكنه لا يسـتعين بالله فيدخله نقصٌ. فإن أحببت فاسـتعن بالله في الطلب، فحُبك لشيء من محبوبات الله هو: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وطلبك الحصول عليه من الله هو: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فـكل محبوباتك اطلبها مـن الله، وبما أقـدرك عليه من الأسـباب فإن أعطاك الله إياها فاحمده، وأدِ شكر النعمة، وإن منعك الله فارض ولا تسخط، ولا تُعلق قلبك بها، فلْيسلم لك قلبُك إذ فاتك مطلوبك، والقلب أهم من المطلوب.

وأنت غنيٌ عن قولي بـأنَّ تَعَلُّم محبوبات الله ومبغوضاته يكون عن طريق العلم بالله، وفقه نصوص الوحي فقط.

وقد بســط ابن القيم الكلام على الحب ومعانيه ومراتبه في منزلة المحبة في كتابه العظيم مدارج السالكين فليراجع، وأكتفي هنا بما يُعزز فهم العبودية والتذلل لله سبحانه.



هل العبودية والخضوع لله يورث الخمول والانعزال؟

هناك مفهومان خاطئان عن العبودية والتعبُّد، وهما: الانعزال، والخمول، فهل العبودية تعني خمول العبد وبلادته وانعزاله عن مشاهد الحياة؟!

أو قد يتصور البعض أن التعبُّد لا يكون في الاختلاط، ولهذا من لم يحسن فهم العبودية يقلقه حضوره مع الناس، أو العمل، أو استقبال الضيوف؛ لأنه ـ حسب ظنه الخاطئ ـ يفسد اتصاله مع الله!

هذا الفهم نتيجة لعدم وضوح مفهوم العبودية في الذهن؛ إذ يتصور أن التعبد يعني الانقطاع، فيتصور أن كل شيء من حوله يشوش عليه انقطاعه بالله!

بينما لم يزدد الصحابة بعد فهمهم العبودية والخضوع لله إلا نشاطاً وجدية وحركة في الأرض، حتى ساروا وفتحوا البلدان والقلوب، ونشروا العلم فيها، وخذ مثالاً على ذلك:

إذا خضع القلب وأصبح رجاؤه لله وحده، فانظر كيف يعصف الرجاء الشرعي بالقلب فيورثه الجدية في العمل

وتحسينه وإتقانه رجاء رضا المولى سبحانه، ولاحظ إذا خَضَعَ القلب فخاف من ربه ذي العزة والجبروت كيف يبعده خوفه عن الحرمات، فيحتاط لنفســه وعرضه، وكذلك إذا استقرت الاستجابة والاستسلام لله في القلب فانظر للمبادرة للصالحات كيف تنشط وتقوى؟! وهكذا بقية عبوديات القلب.

إن التاريخ الإسلامي يشهد بأن الذين ساهموا في حركته ونموه هم أولئك الذين خضعت قلوبهم لله، وتجردت من كل المحابِّ إلا من محبته ســبحانه، فلم يكونوا يسعون لأنفسهم وأهوائهم وحظوظهم، إنمــا لله وحده، فما أقــوى أثرهم في التاريخ؟.

وقد رضي الشــيطان من بعض العُبَّاد الانعزال والانكفاء على أنفسهم، وبررَّ ذلك لهم بانتشار نار الفتنة، وغربة الدين، وتارة يبرر لهم انعزالهم بأنه أسلم لقلوبهم، خاصة حال انتشار الشــرور في الناس، بينمــا كان الصحابــة والتابعون والأئمة المتبوعين قلوبهم خاضعة لله حال اختلاطهم وحال انعزالهم، يمارســون العبودية الله في كل أحوالهــم، ولا ينتظرون ظرفاً يشترطونه اشتراطاً، فعاشوا خاضعين لله مفتقرين إليه، وماتوا على ذلك.

واسمع ابن القيم وهو يشرح سلوك العابد مع الناس والحياة، فيقول: «لا تبخل على الناس بنفسك فيحملك ذلك البخل على اعتزالهم، وتشح بحظك في الخلوة وراحة العزلة أن تذهب بمخالطتهم، بل تحملك السماحة والجود والبذل على أن تترك ذلك لراحة إخوانك بك، وانتفاعهم بمجالستك، فتتكرم عليهم بحظك في عزلتك وخلوتك، وتؤثرهم به على نفسك، وهذا من الفتوة والمروءة»[١].

ومرة قال: «فالأفضل خلطتهم في الخير فهي أفضل من اعتزالهم، واعتزالهم في الشر فهو أفضل من خلطتهم فيه، فالأفضل في كل وقتٍ وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال»[٢].

ويبين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن الضابط في اعتزال العابد واختلاطه هو: وجود التعاون على البر والتقوى من عدمه، فإن كان براً وتقوى فالمخالطة أفضل، وإلا فالاعتزال حال وجود الإثم والعدوان، على أنه لا بد للعابد من أوقات يخلو فيها بنفسه لأوراده وأذكاره، وحفظ جوارحه[٣]. فانظر لهذا الإمام

(١) مدارج السالكين ٣٣٧/٢.
(٢) مدارج السالكين ٨٩/١.
(٣) الفتاوى الكبرى ١٦٣/٢ بتصرف.

العابد الذي جعل تفضيله مبنياً على وجود مظاهر البر والخير وتقوى الله، فالعابد فاعل مؤثر في بيئته ومجتمعه، يأخذ زاده من خلوته لينشر آثارها في مخالطته، مقتدٍ بالأنبياء الكرام عليهم السلام.

وأفضل اختلاطٍ للعابد حينما يحتاجه مجتمعه للإصلاح والخير، وكذلك إذا رأى غزاة الفكر أقبلوا، وتبديل الحقائق والأخلاق قد انتشر؛ فإن الخاضع لله خضوعاً حقيقياً يغار على قلوب الناس أن تتخطف من حوله، وتصرفها الشياطين لعبادتها، فيحركه خضوعه وتذلله لربه وغيرته عليه، وسأرصد لك أيه القارئ الكريم بعضاً من سيرة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقد ظهرت بعض البدع في الكوفة، وكان يسكن فيها؛ لنعلم كيف يكون الخضوع لله والتذلل له سبحانه قوة يُمد الله بها الخاضع العابد[1]:

فمرة خرج يشير بثوبه لمن ابتدع بدعة في مسجد، ومرة أُخبر ببعض المخالفين فلبس برنساً ثم ذهب إليهم وناصحهم، ومرة أتى قوماً يبتدعون بدعة تسبيح بالحصا فغلظ عليهم وحصبهم بها، ومرةً مرَّ بامرأة معها تسبيحٌ تسبح

(١) كل الآثار في كتاب البدع لابن وضاح فليراجع.

به فقطعه وألقاه، ومرةً مرَّ برجل يسبح بحصا، فضربه برجله، وكان يخطب خطبة كل خميس فيلقي كلمةً يذكر بها التمسك بالسنة، ويرغبهم أحياناً، ويحذرهم أحياناً أخرى، وحركته رضي الله عنه تحتاج إلى دراسة يُعتنى فيها بأثر العبودية القلبية عنده.

إن العبودية والتعبُّد والخضوع معنى واسع، وأهم قضية في التعبُّد أن يكون الدافع عندك = قصدك = تنفيذ أمر الملك سبحانه، فمع حضور الضيف ليكن الدافع لإكرامك له أمر الله بذلك، ومحبتك للاستجابة لأمر الله، وابتغاء رضا الله بهذا العمل، وهو ما يسمى (النية الخالصة لله)، فإذا تحقق ذلك فكل ما تفعله مع الضيف من المسامرة والضحك والانبساط والإكرام وغير ذلك = كله أعمال صالحة تؤجر عليها، هذا مثال في التعبُّد لله مع حضور ضيف فقس عليها تعبُّدك له مع خاصة أهلك وعامتهم، وأرحامك، ووظيفتك، ورزقك، وتجارتك، وسائر شؤون حياتك.





قواعد العبودية الخمس

سأجمع لك أيها القارئ المريد فقه العبودية والخضوع لله خمس قواعد من كلام أئمة السلوك العارفين بالله حقيقة المعرفة، وضابط اختياري أن تتعلق بفهم العبودية، وهي:

القاعدة الأولى: لتفهم العبودية افتقر بقلبك لله

الافتقار هو حقيقة العبادة ولبُّها[1]، وهو أن يجرد العبد نفسه من أهوائها وحظوظها، ويقبل بكليته على الله تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]، وهذا مقتضى العبودية، فمَن ادعى أنه عبدٌ لله فيلزمه أن يفتقر إلى الله، ويصرف إليه اعتماده ورجاءه وقلبه وحاله وخوفه وطمعه، وينزل حاجته وضره به سبحانه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وكلمة موسى هذه مليئة بالتذلل والخضوع لله من أوجه:

---

(١) مدارج السالكين ٢/٤١٠.

دعا بلفظ الربوبية المقتضي لقوة المربي وضعف المتربي، ثم أكد حالته بنون التوكيد، وأتى بياء التخصيص الدالة على ذله، وجاء بلفظ الإنزال ليشعر بأنه آتٍ من علوٍ عليّ سبحانه، ونسب الإنزال إلى الله لأنه مصدره سبحانه، وجاء بحرف التبعيض مع تنكير كلمة خير ليدل على ضعفه وفقره وحاجته وضرورة فاقته، ثم ختم بالفقر والمسكنة، فكان عاقبتها أمان ثم زوجة صالحة، وسكن، وعمل وفضائل.

فإن أردت فهم العبودية فافتقر لله بلسانك ودعائك وثنائك، وافتقر بحالك وباطنك وأعمال قلبك لله وحده.

القاعدة الثانية: لتكون عبداً لله كن حاضر القلب مع الله

العبودية هي حالة الذل والحب لله سبحانه، والمحبة والتذلل هما صمّاما أعمال القلب، فالتعبُّد يكون بصرف مشاعر القلب لله، فيدخل التعبد على جميع صفات النفس ومشاعرها، فيقع التعبد والتذلل في خوفها من الله، فلا تخاف وتحذر وتخشى وتشفق إلا من ربها، ويقع التعبد والخضوع في رجاء القلب وطمأنينته، ومهابته وإجلاله، ويقع التعبد بأنس القلب بالله وحده، فلا يأنس إلا بربه وكلامه وقصد وجهه سبحانه.

ففهم العبودية يعني استحضار الله معك في كل تفاصيل حياتك، فهو يعطيك ويحرمك، ويهديك ويضلك، ويحركك ويسكنك، فكل شيء بأمره وقدره لأنه الملك المطاع، ولا يزال العبد يترقى في هذا الشعور حتى يصل إلى مرتبة الإحسان أن يعبد الله كأنه يراه.

وقد ذكر ابن القيم أثراً يهمنا معناه «أن الله سبحانه أوحى إلى بعض أنبيائه: «أدرك لي لطيف الفطنة وخفيَّ اللطف، فإني أحب ذلك، قال: يا رب! وما لطيف الفطنة؟ قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أوقعتُها؛ فَسَلْني أرفعها، قال: وما خفيُّ اللطف؟ قال: إذا آتيتُك حَبّة فاعلم أني ذكرتك بها»[1]. فمن كان بهذا الاستحضار لمعية الله له فهو في عبودية قلبية مع الله، ولما ذكر ابن القيم مراتب المؤمنين ـ المقربين والأبرار والظلمين ـ جعل الأبرار يصلون الضحى، فلما ذكر المقربين ـ وهم أعلى شأناً ـ قال: «فإذا طلعت فإن شاءَ ركع ركعتا الضحى وزاد ما شاءَ، وإن شاءَ قام من غير ركوع». وهذا يثير سؤالاً لمن لم يفهم العبودية بعدُ، لم ذلك؟ كيف يتصور أن

---

(١) إغاثة اللهفان ٥٢/١، وقد ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب ١٥/٢، وهو من الإسرائليات.

المقربين السابقين يتركون ركعتي الضحى مع فضلهم؟! والسبب أنه كمَّل تعبده لله بموافقته الله في كل محبوباته، فلا يتحرك إلا ابتغاء مرضاة الله، ولا يترك إلا لله، فمثل هذا هو في صلة قلبٍ مع الله دائماً، ولهذا هو ممارس للتعبد في كل أحواله، فإن حضر أمرٌ واجب لله أقبل عليه بصدق ومحبة وشوق، فإن فاتته صلاة الضحى فما يوجد في قلبه من التعلق بالله ومحبته واستحضار مراقبته أعلى من صلاة الضحى، «ولا ينقلب إلا في شيءٍ يظهر له فيه مرضاة ربه، وإن كان من الأفعال العادية الطبيعية قَلَبَهُ عبادةً بالنية، وقَصَدَ الاستعانة به على مرضاة الرب»[١].

القاعدة الثالثة: لتمارس العبودية أزل علائق قلبك

العلائق: هي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله، مثل: ملاذ الدنيا وشهواتها، ورياستها، وصحبة الناس والتعلق بهم[٢]. ومن خصائص زماننا المعاصر زيادة العلائق وتنوعها، وتزينها، وهي تأخذ من عمل القلب ومحبته وإقباله وحرصه، فما يوجد في القلب من قوة جعلها الله فيه ليقبل فيها على الله صرفتها هذه

---

(١) طريق الهجرتين، ص ٢١٥.

(٢) الفوائد، ص ١٥٤.



العلائق إلى نفسها، وهذا من طبيعة آخر الزمن الذي تنقلب فيه الموازين الشرعية، ويكون هناك تحسين وتقبيح تبعاً للهوى فقط، ونظراً لقوة العلائق المعاصرة فلن يتركها القلب بسهولة إلا حينما تكون عنده قوة محبة لشيء أعلى من هذه العلائق، وهو الله ودينه وشرعه، أما إن أردت أيها العابد أن يكون القلب ساكنا بدون تَعَلُّقٍ فهذا المستحيل ذاته.

واحذر أيها الفقيه في العبودية أن تظن أن العبودية تقتضي ترك الحياة الدنيا وشهواتها، والإعراض عنها، ورفضها، كيف والشريعة تأمر باستغلال الدنيا فهي مزرعة الآخرة؟!

لكن الفهم الصحيح للعبودية أن تُخرج الدنيا من القلب لتَجعل فيه الله دون غيره، فتأخذ منها ما أحل الله، وتجعله وسيلة تُقربك لله، فقلبك ملتفتٌ إلى الله ناظرٌ إليه، فهذا الذي حقَّق إفراد الله بالتوحيد والعمل والإرادة.

يبقى عليك الآن أن تسأل قلبك: ما الشيء الذي أنت متعلق به؟ ملتفتٌ إليه؟ حريص عليه؟ راجٍ له؟ خائف من فواته؟ مريدٌ له بفكرك وقلبك ولسانك؟!

إن هذه العلائق القلبية أشبه ما تكون بالأصنام لكنها باطنية؛ لأنك تصرف لها شيئاً من أعمال قلبك، وأعرف أنك

أكبرت كلمة الأصنام، فأخفِّفُ عليك بقول النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أُعطي منها رَضِي، وإن لم يُعط سَخَط، تعس وانتكس وإذا شِيكَ فلا انتقش»[1]، فقد أسماه النبي ﷺ عبداً يعبد الدينار والدرهم والخميصة، فَقِس عليه حالك.

فمبتغي فهم العبودية عليه الحذر من علائق القلب، وأن يتعاهد قلبه ألا تمتد حباله إلى شيءٍ غير الله، فكل ما يريده هو بيد الله الواحد القهار، وهذا من تنقية التوحيد.

القاعدة الرابعة: تبرأ من حولك وقوتك

أساس العبودية والخضوع أن تتبرأ من حولك وقوتك، والبراءة من الحول والقوة يراد منها براءة القلب من التفاته لحوله وقوته، وأن يتجرد من رؤية نفسه وقدراته ومواهبه وما مكَّنه الله منه. ومن أكبر إشكالات الزمن المعاصر أنه غرَّر العبد بنفسه، وأورثه الغرور بذاته وقدراته، وعُقدت دورات تدريبية في ذلك، حتى أصبحت كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله تقال في أوقات المصائب، مع أنها كنز من كنوز الجنة، والكنز

---

(١) رواه البخاري (٢٢١٥).

لا نحتاجه وقت المصيبة دون غيرها، بل حاجتنا له في كل حين.

إن كنز المتعبِّد لله يكمن في إظهار عجزه وفقره، وأنه مستمدٌ قوته من ربه سبحانه، وعلماء السلوك يجعلون البراءة من الحول والقوة مرتبطةٌ بمقدار الافتقار إلى الله وحده، فكلما كان الافتقار والتذلل لله أكمل كانت البراءة من الحول والقوة أتمَّ.

ففتش في قلبك ـ وليس لسانك ـ أيها المتعبّد عن مقدار اعتمادِك على حولِك، وقوتِك، وذكائك، وقدرتِك، وصوتِك، ومالِك، وجاهِك، ومنصبِك، وخبرتِك، ورأيِك، وغيرِ ذلك من أمور الأسباب التي تُفعل ويجتهد في بذلها مع خلو القلب من الالتفات والاعتماد عليها.

إن البراءة من الحول والقوة تجعل العبد يسير في الأرض ويمارس حياته وهو مستشعر أنه في قبضة ملك، وتحت سيطرته، وأنه يفعل به ما يشاء سبحانه، فليس لهذا العبد إلا توجيه قلبه بكليته إلى مولاه ليعينه ويتولى أمره، وألا يكله لنفسه طرفة عين، فإن فعلت فأنت العابد المتعبِّد، الخاضع المتذلل لله رب العالمين.

القاعدة الخامسة: ركنان لفهم العبودية حق الفهم

هناك ركنان يزيدان من فهمك للعبودية:

١ ـ إدراك عظمة الخالق: لا تتعجب القارئ الكريم إذا أخبرتك بأننا لم ندرك بَعْدُ عظمة الله حقَّ الإدراك، فالله ملكٌ عظيمٌ عظيمٌ عظيمٌ جدُّ عظيم، سبحانه وبحمده، **وعلى مريد فهم العبودية أن يكثر من تأمل آية الكرسي كثيراً**، وأن يرتبط بها، وأن يقرأ ويسمع تفسيرها، ويستحضر معناها على الدوام، ومع أذكار الصباح والمساء، فإن جمع معها آخر آيتين من البقرة فقد تقدَّم بفهم العبودية منازل عالية، فإن أراد السير في منازل العبودية العالية فليلتمس آيات عظمة الله في كل آية من آيات القرآن.

٢ ـ إدراك ضعف المخلوق: إن اختلت عظمة الخالق في قلوبنا تهاوناً، فمن النتيجة أن تتأثر علاقتنا بالمخلوق تعظيماً، فعلى قدر عظمة الخالق يكون إدراك ضعف المخلوق، وهذا راجع إلى طبيعة القلب التي لابد له من تَعَلُّق. والقرآن مملوء من بيان عظمة الله، وضعف المخلوق، ولهذا كان من السنة قراءة سورة الإنسان فجر كل جمعة، وأولها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

فمن أدرك هذيـــن الركنين فقد أرجع كل شـــيء لحجمه الطبيعي، فالمخلوق أياً كان فهو مخلوق ضعيفٌ، والخالق إلهٌ سبحانه.





مثال العبد مع سيده

أختم عناوين الكتاب بخاتمة تساعدك بإذن الله على حسن تصورك للعبودية والتعبُّد لله، والذل والخضوع له، فقد كان ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من علماء السلوك كثيراً ما يذكرون مثال (العبد والسيد) في كلامهم عن العبودية والتعبُّد لله، وهو أسلوب شرعي قرآني، فقد قال الله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

وقال أيضاً: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

وقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

فمَن فهم مثال العبد مع السيد، وخضوع العبد لسيده، ومحبته له، واعتماده على سيده في كل أموره، وعدم مخاصمته له في أوامره، وانشغال العبد بخدمة سيده، وغيرته على سيده، ودفاعه عنه = مَن استحضر ذلك = فقد فهم التعبُّ لله والتذلل له، فإن أعجزك فهم مثال العبد فعليك بمثال الأب مع أبيه فهو يقرب لك فهم العبودية، وتأكيداً لهذا المثال سأنقل لك عدة نقولات من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

النقل الأول: تصوير انكسار القلب لدى التائب

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً: كسرةٌ خاصةٌ تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوعٍ، ولا رياضةٍ، ولا حبٍ مجرد، وإنما هي أمرٌ وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده، فأُخذ فأُحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بُدّاً ولا عنه غناء، ولا منه مهرباً، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل

جناياته، هذا مع حبّه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذلهِ وعزِ سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرةٌ وذلةٌ وخضوعٌ، ما أنفعها للعبد وما أجدى عائدتها عليه! وما أعظم جبره بها، وما أقربه بها من سيده! فليس شـــيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة، والخضـــوع والتذلـــل، والإخبـــات، والانطـــراح بيـــن يديه، والاستســـلام له، فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أســـألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أســـألك بقوتـــك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتـــي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مســـألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير... إلخ»[1].

فبهذا النقل يقرب ابن القيم كســـرة القلب التائب بشعور ذلك العبد الآبق الجاني المعترف لسيده، وكذلك حال العبد العاصي حينما يتوب لله، وينيب إليه فتورثه توبته انكساراً في قلبه يحبه الله.

(١) مدارج السالكين ٢٠٤/١.

النقل الثاني: مشهد الانكسار عند الذنب

قال ابن القيم وهو يرسم لنا أحد مشاهد العبد العابد مع الذنب وما أحدثه له من انكسار وذلٍّ، فقال: «وصاحب هذا المشهد يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس، ويربيه أحسن التربية، ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية، وهو القيم بمصالحه كلها، فبعثه أبوه في حاجة له، فخرج عليه في طريقه عدو، فأسره وكتفه وشده وثاقاً، ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب، وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به، فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفينة بعد الفينة، فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله، ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه، فبينما هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب، ويريد نحره في آخر الأمر، إذ حانت منه التفاتة إلى نحو ديار أبيه، فرأى أباه منه قريباً، فسعى إليه، وألقى نفسه عليه، وانطرح بين يديه، يستغيث يا أبتاه، يا أبتاه، يا أبتاه! انظر إلى ولدك وما هو فيه، ودموعه تستبق على خديه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوه في طلبه، حتى وقف على رأسه، وهو ملتزم لوالده ممسك به، فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه، ويخلي بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من

الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها إذا فرَّ عبدٌ إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحاً ببابه، يمرغ خده في ثرى أعتابه باكياً بين يديه، يقول: يا رب، يا رب، ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوي له سواك، ولا مغيث له سواك. مسكينك وفقيرك، وسائلك ومؤملك ومرجيك، لا ملجأ له ولا منجى له منك إلا إليك، أنت معاذه وبك ملاذه»[1].

فأظنك حينما قرأت المثل سَهُلَ عليك فهم ما ورد بعده من ربط المثل بباب العبودية، ونلاحظ أن ابن القيم قرّب لنا الأمر بمثال الأب مع ابنه.

النقل الثالث: في بيان توكيل العبد أمره لربه

قال ابن القيم: «فألقى نفسه بين يديه، وسلَّم الأمر كله إليه، وانطرح بين يديه انطراح عبدٍ مملوكٍ ضعيف بين يدي ملكٍ عزيزٍ قاهرٍ له التصرف في عبده بكل ما يشاء، وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه؛ فاستراح حينئذ من الهموم والغموم والأنكاد والحسرات، وحمل كله حوائجه

---

(١) مدارج السالكين ١/٤٢٨.

ومصالحه من لا يبالي بحملها، ولا يثقله ولا يكترث بها، فتولاها دونه، وأراه لطفه وبره ورحمته وإحسانه فيها من غير تعبٍ من العبد، ولا نصبٍ، ولا اهتمام منه؛ لأنه قد صرف اهتمامه كله إليه، وجعله وحده همَّه، فصرف عنه اهتمامه بحوائجه، ومصالح دنياه، وفرَّغ قلبه منها، فما أطيب عيشه، وما أنعم قلبه، وأعظم سروره وفرحه، وإن أبى إلا تدبيره لنفسه، واختياره لها، واهتمامه بحظه دون حق ربه، خلاه وما اختاره، وولَّاه ما تولى، فحضره الهم والغم والحزن والنكد الخوف والتعب وكسف البال وسوء الحال»[1].

فلاحظ كلام الإمام وهو يصور حال العبد الذي وكّل ربه بكل أموره، وكيف أنه ضرب مثالاً بالعبد مع السيد، فأصبح ذلك أكثر تصوراً عند القارئ.

النقل الرابع: في بيان مشاهدة المنّة من الله والتقصير من النفس

قال ابن القيم وهو يبين كيف يجمع العبد العابد في قلبه بين مشاهدة منن الله عليه، ويشاهد تقصيره في الوفاء بحق العبودية: «فهذا مشهدٌ عظيم المنفعة جليل الفائدة تحته من أسرار العبودية

(١) الفوائد، ص ١١٤.

ما لا يناله الوصف، وفوقه مشهد أجلُّ منه وأعظم وأخص تجفو عنه العبارة، وإن الإشـارة إليه بعض الإشارة، وتقريبه إلى الفهم بضرب مثل تعبر منه إليه **وذلك مثل عبد أخذه سيده** بيده وقدمه ليضرب عنقه بيده، فهو قد أحكم ربطه وشد عينيه وقد أَيقن العبد أنه في قبضته وأنـه هو قاتله لا غيره، وقد علـم مع ذلك بره به ولطفه ورحمتـه ورأفته وجوده وكرمـه، فهو يناشـده بأوصافه ويدخل عليه به، قد ذهب عن وهمه وشـهوده كل نسب، فانقطع تعلقه بشيء سواه، فهو معرض عن عدوه الذي كان سبب غضب سيده عليه، قد محا شهوده من قلبه، فهو مقصور النظر إلى سيده وكونه في قبضته ناظر إلى ما يصنعه، منتظر منه ما يقتضيه عطفه وبره وكرمه، وفي هذا المثل إشـارة وكفايـة، ومن غلظ حجابه وكثفت طباعه لا ينفعه التصريح فضـلاً عن ضرب الأمثال، والله المستعان وعليه التكلان، ولا قوة إلا بالله»[1].

وليس القصد اسـتقصاء كلام ابن القيم عـن أمثلة العبد والسيد، إنما المراد أن معرفة حال العبد مع سيده، والسيد مع عبده تُعيـن على فهم أحـوال العبودية التي لا يُـرى لها في الواقع نظير، ومن هنا جاءت تسمية المؤمن عبداً؛ لأن أخص

---

(١) طريق الهجرتين ٣٥٩/١ وما بعدها بتصرف.

صفات العبد هي الخضوع لسيده، وهي الغاية التي خُلق لها الإنسان، فعبودية العبد المملوك مقصودة للسيد البشري ولو لم يَقُم بالخدمة، فلو فُرض أن العبد انتهى من أحد أعماله في الخدمة، فإن فراغه من العمل لا يعني خروجه عن العبودية، فهو عبدٌ بحكم أنه خاضع لسيده في قلبه، ومُقرٌ بالذل لسيده، وهذا محبوبٌ للسيد، واقعٌ عنده الموقع الحسن، ولهذا فإن الله ـ وله المثل الأعلى ـ يطلع على أفئدة العباد، ويرى ما فيها من خضوع له وإقرار وافتقار.

وتستطيع إجراء مثال العبد والسيد مع الأحكام الشرعية، والمخالفات، ففي الصلاة تستطيع القول:

ـ لو قال السيد لعبده أذنت لك أن تدخل علي خمس مرات في اليوم، بعد أن تتنظف وتأخذ أهبة اللقاء، فإن بادرت بالقدوم حين النداء فقد سخرت لك جندي المقربين يحتفون بك، فكيف يكون حال العبد الصادق مع هذا الإذن؟

وفي قراءة القرآن تستطيع القول:

ـ قال السيد لعبده اقرأ كلامي، فهو أنيسك في وحشتك، وهو المعبن لك على أعمالك، وقد ذكرت لك فيه علم الأولين

والآخرين، وأفضل الحكم والتجارب، وذكرت لك فيه أخص خصائصي وأسمائي وصفاتي، وعرفتك بنفسي، فكيف يكون قراءة العبد المحب لسيده لكلام مولاه، وقد قال عنه ما قال؟!

حتى في المخالفات الشرعية تستطيع معرفتها بمثل العبد والسيد، ففي مرض الكبر ووقوعه الموقع العظيم عند الله تستطيع القول:

فلو أن هذا العبد بعد أن أنعم عليه سيده، وسخر له كل شيء حوله، وسوست له نفسه بأن يترك عباءة العبودية وشرفها، وأن يلبس ثوب الكبر الذي لا يليق به، وبدأ يعارض سيده، ويخاصمه في أحكامه وشرعه في ملكه، كيف يكون غضب السيد عليه، فليس حاله كحال عبدٍ آخر وقع في مخالفة سيده في أمر عارض، ثم ندم وانكسر، وهكذا من عصى الله بالذنوب ومن عصى الله بالكبر.





فهرس المحتويات



تجد في هذا الكتاب الإجابة على أسئلة كبرى في حياة المسلم، ومنها:

- في بداية الإسلام لم تُشرع الشرائع، فكيف كان الصحابة يتعبدون لله منذ استيقاظهم إلى نومهم؟
- كيف تكون العبودية صبغة في الحياة كلها؟
- لِم كان الصحابة أفضل عند الله مع أن هناك من هو أكثر منهم صلاة وإنفاقاً؟!
- كيف يتصف المسلم بالعبودية لله في جميع حالاته ومنها يقظته ونومه؟
- إذا كان الله يُحب العبادة فلماذا لا يتعبد كل شخص بالطريقة التي يراها؟!

يعيش المسلم المعاصر ـ إلا مَن رحم الله ـ أزمةً في فهم مصطلح العبودية والذل والافتقار لله، ويعيش أزمةً أخرى في فصله بين الظاهر والباطن، ويعيش أزمةً كذلك بين الاهتمام بالظاهر على حساب الباطن، وقد انتقلت هذه الأزمة من التصور الذهني إلى السلوك العملي، فأصبح بعض العبيد لا يدرك معنى اتصافه بالعبودية لسيده ولو قام ببعض الخدمة، فالكتاب يساهم بتوفيق الله في علاج (**أزمة العبودية**).

مطابع الفسطاط الحديثة sales@al-fostat.com



ISBN 978-603-8344-01-9



المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011
@daralhadarah 0551523173
زوروا متجر الحضارة
daralhadarah.net

